عباس محمود العقاد

الإنسان في القرآن

دار نهضة مصر للطبع والنشر
١٨ كامل صدقي - بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د /السيد محمد بدوى

الاسكندرية



بقلم
عباس محمود العقاد

دار نهضة مصر للطبع والنشر
١٨ ش كامل صدقى . بالقاهرة

إِنْسَانُ الْقُرْءَانِ
وَإِنْسَانُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينْ

تمهيد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الانسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها ، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون ..

قديما كان الحكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الانسان : « اعرف نفسك ! »

وإنها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الانسان إذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بملامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف ..

وهو على أية حال سؤال إلى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرين جوابا متفرقات ..

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء .. فكان سؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الانسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الانسان كله .. لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة ..

إلا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الانسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح ..

ما مكان الانسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هـذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحيـاء ؟ ..

ما مكانه بين أبنـاء نوعه البشرى ؟ وما مـكانه بين كل جمـاعة من هـذا النـوع الواحـد ، أو هـذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنـوان « الانسان » ..

وهى أسئلة لا جواب لهـا فى غير « عقيدة دينية » تجمع للانسان صفـوة عرفانه بدنيـاه وصفوة إيمانه بغيبها المجهول .. تجمـع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة .. حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان ..

إن القـرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الايديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيـدة » لأنه كلمـا ألقى على الانسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه إلى جزاء أهـون من جـزاء الحيرة عنـد السكوت عليه .. فإن يكن سكوتا عن الأجـوبة جميعـا فهـو الهـلاك المحدق بالأبدان والعقـول

وليس أكثر من « المبـادىء والعقائد » التى نسمع عنهـا فى هـذا القرن ، ويسمونها بالمذاهب و « الأيديولوجيات » .

ولـكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجـوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنيـة ولا يتعـداها إلى مشكلة الأبـد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى إلى غير نهاية ، ولا جـواب لهـذه المشكلة غـير العقيدة الدينية التى تؤمن بهـا الانسانية ، فلا يغنى فيهـا إيمان فـرد واحد بينـه وبين ضميره ، أو جـواب سؤال واحـد لمن يقـول : من أنت ؟ وماذا تعـرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصاراك إنك واحـد منهـا بـين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهـم ولا لك إن سكتوا عليهـا

هـذه العقيدة الدينية توجد كمـا ينبغى أن توجد ، وإنما الضلالة فيمن يريدها على غـير سوائها الذى تستقيم عليـه ، ولا تستقيم على سواه

هـذه العقيدة الدينية لا توجـد اليـوم لتنبذ غـدا ، ولا توجـد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للنـاس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبـة ، ولمن يسعون سـعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون فى مواطنهـم منتظـرين ، وقـد يعقـدون وهـم يجهلون إنهـم قاعـدون ، لا يعملون ما الخبر وما المنتظر ؟ إن علموا أنهـم منتظرين ! ..

هـذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفـوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لهـا تراثها قبـل أن يصير إليها ، وسبيلها جميعا أن تتهدى إلى قبلة واحـدة : تنظـر إليهـا فتمضى قـدما ، أو تفقدها فى الأفـق فهى أشلاء ممزقة ، كأنهـا أشلاء الجسم المشدود بـين مفـارق الطـريق ..

❊ ❊ ❊

إن القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعـرض العقيـدة بعـد العقيـدة على الانسان وعلى الانسانية ، ولا نعلم إنه عـرض عليهـا حتى اليـوم قـديما معـادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيهـا أنهـا غنيـة عن الاختراع والامتحان ، وأنهـا على شرط العقيدة الدينية من بنيـة حيـة ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحـدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بهـا الناس .

❊ ❊ ❊

ونحن ندعى فى هـذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصح وأصلح من عقيدتهـم التى يستوحونها من كتابهم ، وإن القـرن العشرين سينتهى بمـا استحدث من مبادىء ومـذاهب و « إيديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمه أهل القـرآن من القـرآن ..

وإن أهل هـذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخـذوا بعقيدة من هـذه العقـائد التى يروجهـا دعاتهـا باسم المـادية ،

أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بهـا أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الإلهيـة ، ومن عقـائد الغيب الذى يحسبونه معـدوما أو موجودا كمعدوم

وقـد استمع الناس إلى المـادية التاريخية ، فقالت لهم إن الانسان عملة « اقتصادية » فى سـوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتهـا بمعيار العـرض والطلب وصفقات الرواج والـكساد . أما الانسانية فقـد أنصتت إلى المـادية التاريخية ، فقالت لهـا إنهـا شىء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجـور ..

واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الانسان واحد من عنصر سـيد أو عنصر مسود ، وإن أبنـاء الانسانية جميعا عبيـد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغـير اختيار

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهـم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شىء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وإن الشىء الموجـود حقـا هو الفرد الواحـد ! .. وبرهان وجوده حقـا أن يفعل ما استطاع من نفـع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سـائر الأفـراد والأحـداث .. !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهيـة عن مكان هـذا الانسان من الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته فى آدم وحواء

سمعوا إنه روح وجسد ، ودنيـا وآخرة ، ينجو شطـره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء ..

وسمعوا إنه إنسانان .. إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول .. صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هـواه ، وزائف مدخول كل من خلقـه ونفـاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه إليـه من دعاه

وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غـيره ، ويموت بذنب غـيره ، ويبرأ من الذنب بـكفارة غـيره ، ويمضى بـين النعمة واللعنـة بقـدر من الأقـدار ، لا نصيب له فيـه من عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار

وسمعوا من القـرآن غـير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليـه ..

الانسان فى عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله .. بدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع

و « الانسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه ..

❋ ❋ ❋

وفى الصفحات التالية كتابان فى كتاب وجيز .. نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الانسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ، ولا نزيد فى سردها على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الانسان ..

الكتاب الأول

الإنسان في القرآن

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب إلى عقائد الرشد والهداية .. لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الانسان ، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله ..

ولقد ذكر الانسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة . فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم فى آن واحد ، وإنما معناه إنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف

والانسان مسئول عن عمله — فردا وجماعة — لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، لا أمة بوزر أمة :

« كُلُّ امرئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين » « سورة الطور »

* * *

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ ، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » « سورة البقرة »

* * *

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع ..

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل ..

فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الايمان :

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » « سورة يونس »

* * *

«وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ» «سورة فاطر»

* * *

«وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً» «سورة الاسراء»

* * *

أما العلم فإن أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الاسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الانسان :

«اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» «سورة العلق»

وأول فاتحة فى خلق الانسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسمَاءَ كُلهَا ، ثمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ ، لاَ عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ»

«سورة البقرة»

* * *

وأما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه :

«لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» «سورة البقرة»

«وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى» «سورة النجم»

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» «سورة الزلزلة»

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هى « الأمة الانسانية » والههم جميعا إله واحد، هو رب العالمين :

« يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ »

« سورة المؤمنون »

* * *

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب ..

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »

« سورة الاسراء »

* * *

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ». « سورة التين »

« سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ » « سورة لقمان »

« سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ » « سورة الحج »

* * *

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة — على السواء — لا يوصف بها مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم

والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف

« إنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفارٌ » « سورة ابراهيم »

* * *

« إنَّ الإنْسَانَ ليَطْغَى أَنْ رَآه اسْتَغْنَى » « سورة العلق »

* * *

« إنَّ الإنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ » « سورة العصر »

* * *

« بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ ليَفْجُرَ أمامه » « سورة القيامة »

* * *

« إنَّ الإنْسَانَ لِربِّه لَكَنُودٌ » « سورة العاديات »

* * *

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ »

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو بمقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزاما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الانسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل والارادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الأعضاء الذى أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق فى الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال

وإنمــا المعنى الموافق لســائر معــانى الآيات ، أن الجمع بين النقيضين فى الانسان ينصرف إلى وصف واحــد ، وهو وصــف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى إلى أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين

على أن الآيات التى قصر فيهــا القول على خلق جسد الانسان ، لم تخلُ مما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقــه السوى إعداد لمــا هو أشرف من حيــاته الحيوانيــة : وبرهان من براهين التبليغ برســالة الغيب ، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيــه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ » « سورة المؤمنون »

* * *

« ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » « سورة السجدة »

* * *

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » « سورة الروم »

* * *

« سُبْحَانَ الذى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ » « ســورة يس »

ولا يسأل الانسان عما يجهل ، ولكنــه يسأل عمــا علم وعمــا وسعه أن يعــلم ، وما من شىء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان ، فما وســعه من علم فهو محاسب عليــه

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ واقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق فى تفصيله سائر أركانه التى تتم به أو يتم بها على قدر مبين

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الانسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل فى هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الانسانية

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه إلى هذه الفضيلة التى تحسب لأول وهلة كأنها شىء من الواقع البديهى لا يحتاج إلى التنبيه ، ولكن حاجته إلى التنبيه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، فى فضيلة التبليغ المقصود ، ونعنى به التبليغ الذى يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان

فى كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الانسان من الهلاك أو ضياعه فى هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان فى كتاب الدين فاذا هى معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها ..

مثل هذا لا يعرف فى حكم من أحكام الكتاب المبين ولا فى ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التى تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ ..

مكان الانسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ..

هو الكائن المكلف ..

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن النـاطق » وأشرف فى التقـدير ..

هو كائن أصوب فى التعريف من المـلك الهـابط ومن الحيوان الصـاعد ، وأشرف فى التقـدير من هـذا وذاك

ليس الكائن النـاطق بشىء ، إن لم يكن هـذا النطق أهلا لأمانة التكليف

وليس الملك الهـابط منزلة تهـدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليـه وما صـار إليـه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقـاء

إنمـا الكائن المكلف شىء محـدود بين الخـلائق بكل حـد من حـدود العقيـدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقـة موضوع فى موضعـه المكين بالقيـاس إلى كل ما عـداه ..

أى شىء أعجب من هـذه الخاصة المحكمة ينفرد بهـا القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفـات الدعوة الدينيـة ..

إنهـا عجيبة لا يدفع عجبهـا إلا أنهـا تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين ..

إنهـا عجيبـة لم تأت من مصـادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتـاب الذى ميز الانسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفـة عرفهـا له العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصبح العقل « درسا » يتقضاه الدارسون كنهـا وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنـه ، وفيما يصدر منـه وما يئول إليـه ..

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف ..

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور ..

العقل رشـد يميز بين الهـداية والضلال ..

العقل روية وتدبير ..

العقل بصيرة تنفـذ وراء الأبصار ..

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعي وتبدىء وتعيد ..

والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهي عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

« وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا » « سورة آل عمران »

* * *

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَاخَلَقَ اللّٰهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى » « سورة الروم »

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظاته جميعا إذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الانسان بالتكليف في القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز في مصطلحات الأوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارىء لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ في هذا الكتاب أن الأمر فيه يجري على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة ..

إنها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشري قبل تمييز الانسان بخاصة التكليف وإعداده لخطاب العقل وبينات الاقتناع ..

كانت الأمم — قبل البعثة المحمدية — تفهم أن النبوة استطلاع للغيب

وكشف للاسرار والمخبآت ، يستعان بهما على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونهما عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود فى دفعه قبل نزوله •• فجاءت نبوءة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب فى الانسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه ••

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم •• وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعييها قبول الاقتناع ••

إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم إذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

« قُلْ لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنْ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » « سورة الاعراف »

نعم •• ولا إغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء بين الأخذ والعطاء :

« قُلْ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ . إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَايُوحَى إِلَىَّ . قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ » « سورة الانعام »

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة و يوم مات ابنه

ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنهـا كسفت لموته ، وأبى النبى الصادق أن يسكت عليهـا ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتـان لا تخسفان لموت أحـد ولا لحيـاته

وقـد بين للنـاس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقـل ويأبى الاصغاء إلى بينـات الاقنـاع :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » « سورة الحجر »

ولقـد تقدمت نبوة الاسـلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شـأنا فى تاريخ العقيـدة ، ولكنك لو عرضتهـا على مؤرخ ينظر فى أدوار التـاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الانسانيـة بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنهـا ، لأنهـا جميعا قـد بدأت وانتهت قبل أن توجـد فى أذهان النـاس فكرة الانسانية العـامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقـل والضمير ..

فنبوات بنى إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحـدة ، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلهـا عن سائر الأمم وعيسى عليـه السلام قـد نقـل الرسالة نقـلة واسـعة حين أدخل أبنـاء ابراهيم بالروح فى عـداد أبنـائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الانسان بعـده محتاجا أشـد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجـاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعـات صلاحه وتربيـة روحـه ، ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبـل أن يوجـد الانسان الذى يخاطب بخطـاب العقـل ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعـاته على عاتقـه ويشترك على سـواء بينـه وبين إخوانه من البشر فى عبـادة إله واحـد ، هو رب العـالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمتـه لسلالة واحـدة من خلقه ، أو لعشيرة واحـدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينهـا بعمل يمينهـا ..

فلمـا جاءت نبوة التكليف ، صح فى حـكم العقل أن تختتم بهـا النبوة

لأنهــا حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العــاقل المسئول ، وتحضره آيات اللـــه لقوم يعقلون

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ والفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِى البَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّة وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُون » « سورة البقرة »

* * *

إن قيــام النبوة على إقنــاع العقل المسئول بآيات الكون ، قــد اختتم سـلطان الأحبــار والقــادة كمــا اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعــذر الاســلام إنسانا يعطل عقــله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبــار المتسلطين بسلطان المــال والدين :

«قَالُوا فيمَ كُنتُمْ . قَالوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيهَا » « سورة النساء »

* * *

« قَالَ الذينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ » . « سورة سبا »

* * *

« يَا أَيُّهَا الذينَ آمنوا إِنَّ كَثيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بالبَاطل وَيَصدُّونَ عَنْ سَبيل اللهِ » « سورة التوبة »

* * *

« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ »

« سورة التوبة »

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إن كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ . فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » « سورة النحل »

فاذا سمى ختام النبوة باسمه الحق فى تاريخ الانسان ، فاسمه الحق إنه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى « عصر العلم » فلا يفهم منه إلا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسيغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبى ، كيفما تصوره الناظر إليه على حقيقته أو على دعواه .. فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقادة بين يديه .. فان جاز فى حقه هذا « الحكر » المغتصب ، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله إياه ، وقدرته على إخلاف دعواه ؟

إن اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير فى عقل يطيق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم ، ولو كان احتكار النبوة باعث النبى إلى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها

ادعاء النبوة أصــلا وهى لا تخــول النبى ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيبه المجهول من مشيئة اللــه

ولكن الايمان بالعقل المسئول ، هو البــاعث البين الذى يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتــام النبوة واختتــام الكهانة واختتــام سلطان الحاكمين على الضمير ، وان انتظــامه كله على هــذه السنة المتفقــة لهو الآية الناطقــة بإرادة اللــه

روح وجسد

عقيدة الروح إحدى العقائد الغيبية فى القرآن .. والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الانسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الايمان والاسلام : اسلام الأمر كله إلى الخالق المعبود ..

وعقيدة الروح إحدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الانسانى أن يؤمن بعمله القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الايمان بأنها من علم الله ..

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقتين : خلقة الانسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الانسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك .. وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم :

« يَأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ . وَكُلوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا واتقُوا اللهَ الذى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » « سورة المائدة »

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن

ينفق منهـا غير مسرف فى إنفـــاقه ، وأن ينعم بالطيبـات من ثمرات الأرض وخيراتهـا لأنهـا نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبهـا :

« يَـأَيهَا الذين آمَنُوا أَنْفقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكمْ مِنَ الأَرْض » « سورة البقرة »

* * *

« يَـأَيهَا الذين آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَات مَارَزَقْنَاكمْ وَاشْكُرُوا الله إنْ كُنْتُمَ إيَّاهُ تَعْبدونَ » « سورة البقرة »

* * *

ومن تمكين الانســان فى الأرض أن يبتغى فيهـا معيشـته ويسيم فيهـا مطيتــه ، وأن يتخـذ منهـا زينتــه ، ويتم بهـا عدته ، ولا يزهد فى شىء من خيراتهـا يخرجه لنفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربــه :

« وَالخيلَ والبغَال وَالحَمِيرَ لتَرْكَبُوهَا وَزينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعلَمونَ . وعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبيلِ وَمِنْهَا جَائرٌ وَلوشَاءَ لَهَدَاكم أَجْمَعين هُو الذى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسيمُونَ . يُنْبتُ لَكُمْ بهِ الزَّرْعَ وَالزَّيتونَ وَالنَّخيلَ وَالاعنَابَ وَمِنْ كلِّ الثمراتِ . إنَّ فِى ذَلكَ لآيةً لقَوْم يَتفَكَّرُونَ »

« سورة النحل »

* * *

بل الزينــة للعبادة واجبـة كوجوبهـا لمقاصد الدنيـا ومطالب المعيشة والخطاب فى هــذا موجه إلى بنى آدم لأنه نعمــة مرضية من نعم الانسانية ومن تمييز اللــه لهــذا الانسان على سائر الحيوان :

«يَابَنِى آدم خذوا زينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مسجدٍ وكُلوا واشربُوا ولا تسرِفُوا إنهُ لا يحبُّ المسرِفينَ . قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ التى أَخرجَ لِعبادِهِ والطيباتِ مِنَ الرزْق» «سورة الاعراف»

❋ ❋ ❋

«ولقدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الارضِ وجعلنَا لَكمْ فِيهَا مَعَايشَ»
«سورة الاعراف»

❋ ❋ ❋

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الانسانية يحار فيه العقل وتتمزق به أوصال الضمير

وقوامه فى خطاب التبليغ للانسان من بنى آدم كافة :

«وَابْتغ فِيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا» «سورة القصص»

❋ ❋ ❋

فليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الانسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير إسراف ولا جور عن السبيل :

«ومِنْهَا جَائِرٌ . وَلَوْ شاءَ لَهَداكُم أَجْمَعِينَ»

إن القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائض التفكير ، ولا ينحيه من نقائض التكليف وحسب ، أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد

فمن ضلال التفكير قديمـا ، أنه ساق كبـار العقول إلى ذلك الفـاصل المتعسف بين عالم النور والفـلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السـفلى ..

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنـالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لهـا وجود ولو أشرق عليهـا عالم النور

وعلا مثل هـذا « التفـاضل » المسلم به بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قـد دار كل ما دار قديمـا وحديثـا ـ فى الدين والعلم ـ من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمـادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام ..

إن هـذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قـد عطل العقل زمنـا طويلا عن فهم حقـائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقـائق التكليف وحقـائق الأديان

إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء ، من معدن واحد ، وأن الحجر اليابس يتفتت فاذا هو شعاع ، وأن الشعاع المطلق ينعقـد ويتقابل فاذا هو حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيـه ، ولكن لا شك كذلك فى خفـاء هـذا الأمر على العلم كخفـائه على الايمـان ..

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمـادة دون الروح ؟

ماذا يقول عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقول علماء ما قال به قارىء الكتاب إيمانا حين قيـل له عن الروح فسمع وصدق وقلبـه مطمئن بالايمـان :

«قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلًا»

« سورة الاسراء »

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب إلى الكون ..

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب إلى الانسان ..

ورتبوها على حسب صفائها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهى هو العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الانسانى أو العقل المنفعل Pothetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف .. فعندهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور ، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلوطين أن العقل الالهى فيض منعم صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفائها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاهبهم الصوفية ..

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العضوية جميعا ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها من الارادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح ، فانها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه ..

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، والانسان له نصيبه من العقل .. ولكنه دون العقل الفعال فى جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتزيد على درجات ..

إن هــذا الاختلاف بين هــذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغــة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية إلى كثافة المــادة ويقاس من ناحيــة إلى المثل الأعلى ، وهو اللــه

وقــد يقــاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانية إلى الجوهر بمقــدار ارتفاعه ، وإلى المــادة أو الهيولى بمقدار هبوطه ..

ولكن كمال هــذه القوى فى لغة القرآن مقيس إلى كمال الله جل شأنه .. فأرفعهــا وأشرفها ما كان أقربهــا إلى الصفات الإلهيــة ، وأدناها وأخسهــا ما كان أبعــدها من تلك الصفات ..

ومن المقابلة بين هــذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد نتبين أن « الروح » هــو أقربهــا إلى الحياة الباقية وأخفاها عن المــدارك الحسية ، وإنه الجانب الذى استأثر اللــه بعلمه واحتجب عن أنبائه ، لأنه سر الوجــود المطلق .. لا قــدرة للعقل الانسانى المحدود على الاحاطة به ووعيه إلا بمــا يناسبه من الإشارة والتقريب :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً »

أما العقل والنفس فى بيــان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربهما إلى الطبع أو القــوة الحيوية التى تشمل الإدارة كما تشمل الغريزه ، وتعمــل واعية كما تعمل غــير واعيــة ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقــوة التى يدركها النــوم ، والقــوة التى يزهقها القتل ، والقوة التى تحس النعمة والعــذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمــل من حسنة وسيئة .. فهى القــوة التى تعمــل وتريد ، مهتدية بهــدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة ..

« اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا »

« سورة الزمر »

« وَهُوَ الذِى يَتَوَفَّاكُمْ بالليلِ وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُم بالنَّهَارِ »

« سورة الانعام »

وإذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فإنما هو قتل الانسان أو الناس على حسب الخطاب إلى الفرد أو الجماعة :

« من قتل نفساً بغيرِ نفس أو فسادٍ فى الأرضِ فكأنَّما قتل النَّاسَ جَمعاً . » « سورة المائدة »

« وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحيماً » « سورة النساء »

« ثُمَّ أَنتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ » « سورة البقرة »

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فإنَّ الجنةَ هِى المَأْوَى » « سورة النازعات »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنما هى إنسان واحد فى جميع هذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خَفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب إليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية إلى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وإن لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول ..

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء

النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة ..

فقــوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » :

« وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسى إِن النَّفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ » « سورة يوسف »

وقوة النفس الواعيــة تقــابل النفس الملهمة :

« ونفسٍ ومَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا » « سورة الشمس »

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقــرونا بيوم القيامة :

« لاَ أُقْسِم بِيَوْمِ القِيَامَةِ ولاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْس الَّلوَّامَةِ »

« سورة القيامة »

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

« بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَه »

« سورة القيامة »

وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المطمَئِنة ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّة »

« سورة الفجر »

وفى كل موضع من هــذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هــذه القــوى .. فتجمعها خاصة واحــدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهمــا كما تقــدم خاصة الكائن المكلف المسئول

« كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَة » « سورة المدثر »

« وَنَضَعَ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيئاً »

« سورة الأنبياء »

« يَومَ تَجِدُ كلُّ نَفسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً »

« سورة آل عمران »

« إِذَا السَّماءُ انفَطرَتْ . وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ . وإِذَا البِحَار فُجِّرَتْ . وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ و أَخَّرَتْ . يا أَيها الإِنسَانُ مَاغَرَّكَ بربِّكَ الكَرِيم الذى خلقَكَ فسوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فى أَىِّ صورَة ماشاءَ رَكَّبَكَ » . « سورة الانفطار »

« وَإِذَا النفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ . وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا الجَنَّة أُزْلِفتْ . عَلِمتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ » « سورة التكوير »

وجملة ما قيل فى معنى « النفوس زوجت » أنهـا تقترن بمقوماتها وأعمالها أو تضم إلى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حسـاب الانسان ، ولـكن الذات الانسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حـين تذكر كل منهـا على حـدة ، فإن الانسان يحاسب نفسـه لينهـاها عن هـواها ، ولـكن الروح من أمـر الخالق الذى لا يعلم الانسان منه إلا ما علمه اللـه ، ويتوسط العقل بـين القـوتين فهـو وازع الغريزة ومستلهم لهـداية الروح .

ولعلنا نفقة من هـدى القرآن ترتيب هـذه القوى فى الذات الانسانية ، وعمل كل منـها فى القيام بالتكليف وتمييز الانسان بمنزلة الكائن المسئول ..

فالانسان يعلو على نفسـه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقـوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند اللـه .. وحق العقل أن يـدرك ما وسـعه من جانبه المحدود ، ولـكنه لا يدرك الحقيقة كلهـا من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهـام

الأمانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات فى خمسة مواضع من القرآن الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى فى آية من « سورة البقرة » بوديعة المال وما إليه . إذ قال تعالى فى سياق وثائق الديون :

« يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوه ، وَلْيكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلمه اللهُ » . . . إلى قوله تعالى : « فإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيتَّقِ اللهَ رَبَّهُ » « سورة البقرة »

ففى هذه الآية خصصت الأمانة بمن يؤتمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن نهمى حقه :

« وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كما عَلَّمَهُ اللهُ »

وكل ماورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام ، وإن ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ إلى جميع المخاطبين بآيات الكتاب

جاء فى سورة النساء : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ »

قال الامام الزمخشرى فى الكشاف : « الخطاب عام لكل أحد فى كل أمانة .. وقيل : نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، وذلك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم

الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : « لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه » فلوى على بن أبى طالب رضى الله عنه يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعلى : « أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : « لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا » . وقرأ على الآية . فقال عثمان : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .. »

ومضى الامام الزمخشرى فى تفسير الآية إلى أن قال : « وقيل هو خطاب للولادة بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد »

وفى الجلالين إن الآية « وإن وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع » ..

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « إن الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة وأن النبى عليه السلام تلاها استشهادا »

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول إن الأمانة « كل ما أؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ، وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره » وإن الخطاب موجه إلى الناس عامة وإلى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد فى سورة المؤمنين :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »

فهى تشمل كل ما يرعاه الانسان من عهد وذمة . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأنفال ، وعلى هذا المعنى — إجمالا — يفهم كل تبليغ خوطب به الناس عامة وإن تنزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الأمانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة

إلى آحكام التبليغ ، لأن الأمر فيهـا أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليهـا العـاقل وغير العاقل واستعد لهـا الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب •• وفى هـذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هـذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليقة كلهـا ، وذكرت ومعهـا صـفة الانسان التى تخصه بين عامـة المخلوقات حين يتقبل أعبـاءها ويحملهـا ، وما كان ليحملها إلا أن يتعرض لتبعاتها فهـو ظلوم جهول •• ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهـو يعرفهـا ، وجهـول لأنه يتعـدى تلك الحدود وهـو لا يعلمها ، وعنـده أمانة العقل التى تهـديه إلى عملهـا •• وما من كائن غـير الكائن العـاقل يوصف بالظلم والجهـل ، لأنه لا يعـرف الحد الذى يتعـداه ولا تنـاط به معـرفة الحدود • وإنما يوصف بالظلم والجهل من يصـح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعـل يريده فى الحالين

قال تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا » « سورة الأحزاب »

وذكرت هـذه الفطرة الانسانية فى موضـع آخر من الـكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثـير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سـورة الاسراء :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى البَرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا »

« وكثيرا ممن خلقنـا » فى هـذه الآية تشمل كل مخلوق لم يـكن أهلا لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيـه من فطرة التكوين •

* * *

ولقد وضح معنى « الأمانة » فى هـذا الحكم العـام وضوحا لا يقبـل اللبس أو الانحراف بالفهـم عن جوهره المقصـود ، وهو التكليف •• فمن لم

يذكره من المفسرين بنصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقـاته ، وهى ملازمـة لـه لا تنفك عنـه ..

وهـذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذى فهم من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام إلىالقرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشرى المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة فعظّم أمرها وفخّر شأنها ، ويراد بهـا الطاعة لأنهـا لازمة الوجود كمـا أن الأمانة لازمـة الأداء ، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز ، وأمّا حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لهـا ، تريد إنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمتـه ويخرج من عهدتها »

* * *

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتـوفى سنة ست وستمائة للهجرة · « إنا عرضنا الأمانة أى التـكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هـذا النوع من التكليف ليس فى السماوات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلهـا على ما خلقت عليـه : الجبـل لا يطلب منـه السير ، والأرض لا يطلب منهـا الصعود ولا من السماء الهبـوط ، ولا فى الملائـكة ، لأن الملائـكة وإن كانوا مأمورين منهيـين عن أشـياء لـكن ذلك لهـم كالأكل والشرب لنـا ، فيسبحون الليـل والنهـار لا يفترون كمـا يشتغل الانسـان بأمر موافـق لطبعـه ... »

قال الامام الفليسوف فى تفسير حمـل الأمانة : « لم يـكن اباؤهن كاباء إبليس فى قوله تعـالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحـدهما إن هنـاك السجود كان فرضـا ، وها هنـا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما إن الاباء كان هنـاك استكبارا وها هنا استصغارا : استصغرن أنفسهن ، بدليـل قوله تعالى : « وأشفقن منهـا » ... وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين : مدرك وغـير مدرك ، والمدرك منـه من يدرك الـكلى والجزئى مثـل الآدمى ، ومنـه من يدرك الجزئى كالبهـائم تدرك الشعـير الذى تأكله ولاتفـكر فى عـواقب الأمـور ولا تنظـر فى الدلائل والبراهين ، ومنـه من يدرك الكلى ولا يدرك الجـزئى كالملك يدرك الـكليات ولا يـدرك لذة الجماع

والأكل . قالوا : وإلى هـذا أشـار اللـه تعـالى بقـوله : « ثم عرضـهم على الملائـكة فقال : أنبئونى بأسماء هـؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتـكليف لم يكن إلا على مـدرك الأمرين . إذ له لذات بأمـور جزئية فمنع منهـا لتحصيل لذات حقيقية هى مثـل لذة الملائكة بعبادة اللـه ومعرفته ، وأما غـيره فان كان مـكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بمـا فيـه عليهم كلفـة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فان المخاطب يسمى مـكلفا كمـا أن المخاطب مكلف ... »

* * *

وقال الامام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ... عن ابن عبـاس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضهـا قبـل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقـال لآدم : إنى قـد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها .. فهل أنت آخـذ بما فيها ؟ قال : يارب .. ومما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عـوقبت ، فأخـذها آدم فتحملها ... وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، أن أدوها أثابهـم وإن ضيعوها عذبهـم . فـكرهوا ذلك وأشفقوا من غـير معصية ، ولـكن تعظيما لدين اللـه ألا يقـوموا بهـا ، ثم عرضها على آدم فقبلها بمـا فيهـا ..

« قال مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وغير واحـد أن الأمانة هى الفـراض .. ثـم أورد الامام ابن كثير أقـوالا أخـرى مروية بأسماء أصحابها ، وعقب عليهـا قائلا إنهـا كلهـا ، لا تنـافى بينهـا ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنهـا التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها »

* * *

وجاء فى تفسير الامام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ المهجرة : « إنا عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها ، مما فعلها منـه الثواب وتركها منـه العقاب .. »

وقال الامام محمد جمال الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« .. عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنهـا حقـوق مرعية أودعها الله تعالى المـكلفين ، وائتمنهم عليهـا ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ،

وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشيء من حقــوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة فى عظــم الشأن بحيث لو كلفت هاتيــك الاجــرام العظام — التى هى مثــل فى القوة والشدة — مراعاتها ، وكانت ذات شــعور وإدراك ، لأبين قبولها وأشفقن منهــا ... أما قوله تعــالى : وحملها الانسان أى عنــد عرضها عليــه ، إما باعتبارها بالاضافة إلى استعداده ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق — أى تكلفها والتزامها مــع ما فيــه من ضعف البنية ورخاوة القــوة ، وهو إما عبــارة عن قبوله لهــا بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى .. وقوله تعــالى : إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الجمل وغايته للايذان من أول الأمر بعــدم وفائه بما عهــده وتحمله ، أى إنه كان مفــرطا فى الظلم مبالغــا فى الجهل ، أى بحسب غالب أفــراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ... »

* * *

ونقــل صاحب تفسير الجواهر زبدة هــذه المعــانى ، ثم نقــل تفســير الفيروزبادى لمعنى حمــل الأمانة ، إذ قال : « فأبــين أن يحملنهــا وحملهــا الانسان ، أى أبين أن يخنها وخانهــا الانسان . قال : والانســان هنــا هــو الــكافر والمنــافق .. »

* * *

ولا نختم هــذه المقتبسات قبــل أن نعــود إلى الاستدراك الذى بدأناها به ، وهو الاتفــاق على معنى التكليف ، وإن الاختلاف على المذام التى تترتب عليــه إنما هو الدليــل على معنى الاســتعداد الفطرى للمذام وما عــداها ، أو على معنى الوقوع فى المذمة بمجاوزة حــدود التكليف ، ظلما مع العلم بها ، وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها

إلا أن معنى الاســتعداد الفطــرى لا يخفى إذا روجت الآيات التى ورد فيهــا ذكر صفــات « الانســان » بمعنى جنس الانســان فانه يذكر بهــذه الصفات فى مواضــع كثــيرة مــع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قــوى الطبيعة ، فقــد ذكر تــكريم بنى آدم مــع السلطان على البر والبحر والزرع

والضرع والتفصيل على كثــير من خلائق اللــه ، وذكر ظلم الانســان وجهله مــع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بــين خلق السماوات والأرض ، وذكر فى غــير هاتين الآيتين بقبوله للخير والشر مــع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق الليــل والنهار وخيرات الأرض وحســاب الأفلاك ، ومن ذاك وفيــه الاشارة إلى أمثاله من الآيات :

« وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » « سورة الاسراء »

فقــد ذكرت هنــا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء وتصريف الليــل والنهــار ، وعجلة الانسان على حساب العواقب وهــو أهــل للحساب ، حساب الشاهد والغــائب ، وحســاب النــور والظلام وحســاب السنين والأيام

التَّكْلِيفُ وَالْحُرِّيَّة

من شروط التكليف طاعة وحرية ..

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية القدر ، وفى قضية الايمان ، وفى قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهى فى ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال فى فهم خلق الانسان .. فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر إلى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهى فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا على الايمان ..

فى القرآن خطاب متكرر إلى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع إسناد الارادة إليه فى استحقاقه للثواب والعقاب ..

وفيه آيات صريحة تسند الارادة إلى الله ، وتقرر إنه — سبحانه وتعالى — هو الخالق المقدر الذى يقدر الهداية والضلال ، ويعطى كل شيء خلقه ويهديه ، وهى آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وإن لم تبلغ فى الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير

* * *

« فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فيه مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ واللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » « سورة البقرة »

* * *

« قلْ أَمَرَ رَبِّى بالقسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وادْعُوهُ مُخلصِينَ لَه الدِّينَ كمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فرِيقًا هدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » .. « سورة الاعراف »

* * *

«سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى الذِى خَلَقَ فَسَوَّى وَالذِى قَدَّرَ فَهَدَى»
« سورة الأعلى »

* * *

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » « سورة ابراهيم »

* * *

« يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » « سورة ابراهيم »

* * *

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فمعناها الظاهر الذى لا تأويل فيه إن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده ويخلق ما يعملون •

أفى هذا تناقض فى حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر إلى النصوص ، أو إلى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص ؟ ••

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفى التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال ••

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والارادة ••

وليكن التكليف إرادة من عنـد اللـه أو يكن ضرورة من قضـاء الواقـع لا يرتبط بهـا أمر ولا جزاء ..

فكيف يتصور العقل إرادة الانسان على كل احتمال ؟

إنه لا يتصـورها إرادة مطلقة من جميـع القيـود ، لأن إرادة إنسـان واحـد تنطلق بغير قيـد هى قيـد لـكل إنسان سـواه ، وكيف يأتى هـذا الانسان الواحد بإرادته المطلقة منفردا بهـا بين أمثاله المقيدين ؟ ..

إما أن يوجـد الناس جميعا بإراده مطلقة لكل منهم على سواء ، فهـذه هى الإحالة العقلية فى الفرض والتقـدير ، قبـل الوصـول بهـا إلى الايجاد والتحقيـق ..

فإذا كانت الارادة المطلقة هى إرادة اللـه ، فخلق النـاس مكلفين بغـير إرادة لهـم شىء غـير معقول وغـير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هـذه الحالة إلا أن يخلق النـاس جميعـا متشابهين متماثلين متسـاوين فى العمل الصالح الذى يساقون إليـه ، كمـا تساق الآلات ، فلا فضـل إذن للعاقل على غـير العاقل ، ولا تمييز للانسان على الجماد المجـرد من الحس ، فضلا عن الحيوان ..

فإذا وجب تـكليف الانسان ، فالعقل الانسانى لا يوجبه إلا كمـا ينبغى أن يوجب على حالة واحـدة لا سـواها ، وهى حالة الارادة المخلوقة يودعهـا فيـه الخـالق كمـا ينبغى أن تودع ، وهى لا ينبغى أن تودع إلا على هـذا الفـرض الذى يدعو إليـه القرآن ..

إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغى أن تكون فى احتمال العقـل المدرك المميز الذى يهتدى بإذن اللـه لمـا اختلفوا فيـه

ولا يقـال إن الحرية التى تخلق ليست بحرية .. فإن الحرية غـير القيد سـواء كانا مخلوقين أو مطبـوعين ، وسـواء كانا من عالم الروح أو من عالم المـادة عنـد التمييز بينهما كما تتمايز قيمـة المعـدن نفيسا وغـير نفيس ، وكلاهما مخلوق أو مصـنوع ، فإن صنعنا للآنيـة الذهبية وللآنيـة النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين

وليس فى العقل شىء يسمى حرية مطبوعة ، تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ..

* * *

وإذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها إرادة ، فلنرجع إلى العقل لنرى كيف يتصورها العقل — أى عقل — وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال ..

إنها لا تكون سواء فى كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هى بشىء ، إذ ليست الموجودات التى لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هى عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولاعقاب

فإذا وجد المخلوق حرا ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف فى حكم العقل كيفما كان حكم النصوص

وإذا قضى العقل بهذا دون سواه ، فالعقل هو الذى يتصور إرادة الله وإرادة الانسان على احتمال واحد دون سواه ..

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان ، إذ كان كل ما عدا حرية « الايمان » فرضا غير معقول ، بل غير موجود

* * *

ونحن إذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف إذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائض الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل واعتماد العقل على الايمان

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من كل تعطيل ..

وإنما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا من المتدينين والمنكرين إن الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله — إذا تقبله — وهو مغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه النظر وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع

هذا إيمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا إلى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب .. فإما عقل ولا تصديق ، وإما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

* * *

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان ..

إن الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نيجة لاهماله وإبطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان ، لأن إنكار هذه الضرورة نقيضه عقلية وليس بنقيضه للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل إلى الايمان بموجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الايمان ولزومه — منطقا — قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذى يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود ..

والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل المحدود ..

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ..

هى إحدى اثنتين .. إما إنكار جزاف ، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل .

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيض ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من الانكار .

* * *

إن الموجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذى نريده بالايمان ، وهذا هو حقه فى إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالوجود المطلق الذى ليست له حدود ..

أفيقول العقل إذن : « لا إيمان بهذا الموجود المطلق لأنه هو الموجود الذى يصح فى العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول إيمان بغيره ؟ ..

العقل لا يقول هذا ..

والعقل إذا قال بضرورة الايمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه إيمان ..

إن العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو المسئول أن يستمع إلى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وإرادة المخلوق ..

أُسْرَةٌ وَاحِدَة

خيل إلى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف إلى اليـاء ، وإن تعريف شيء من الأشياء فى عقـائد القـرون الوسطى كاف لرفضه ولاعادة بحثـه ثم إعادته إلى الاصطلاح بمدلول جـديد

وأول هـذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هـذا العالم ، لأن الانسـان لم يزل فى كل عصر ، وفى كـل علم ، وفى كل عقيـدة ، مقياسا لمـا عـداه من خلائق هـذا العـالم ، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر إليـه كلما تبـدل النظر إلى الوجود بأسره

ولم يتبدل النظر إلى مركز الـكرة الأرضية من الأجرام السماوية ، حتى خيـل إلى كثـير من الفلـكيين والجغرافيين أن حقـائق السماوات والأرضين قـد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ..

وقـد أعيـد النظر إلى مكان الانسان من الخليقة كلهـا ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التى عرفوها باسم الأوائل Primates وهى فى الذروة من طبقات الحيوان اللبون

وأعيد « تصنيف » هـذا النوع الحيوانى فذهب بعضهم بعيدا فى تقسيمه إلى عنـاصر ، وإلى الرجوع بكل عنصر منهـا إلى نوع من القـردة الأوائل ، كما سيجىء فى الكلام على آراء النشوئيين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا إنه نوع واحـد لم يرتابوا فى تقسيمـه إلى « عنـاصر » أو سلالات تـكاد ــ لولا التنـاسل فيما بينهـا ــ أن تعتبر أنواعا مسـتقلة بتراكيب أبدانها وعقـولها ، بل قال بعضهم إن تجارب العلم لم تثبت إمـكان التناسل بينهـا ، ولم تنف إمـكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القـردة المشـابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبـل التحقـق من السـلالات الانسانية كلهـا قابلة للتوالد فيما بينهـا ، كما يتوالد ذكور الحيوان ، وإناثه

من النوع الواحد بغير عائق للنمو فى دور الحمل ودور الطفولة ..

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآريه » نوعا «سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى خيل إلى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لأنه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان ..

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب قرن من مذهب دارون : « إن التفرقة بين عناصر النوع الانسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الانسانى إلى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر فى إفريقية وبلاد الملايا والقارة الاسترالية . فإذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان إلى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين إلا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » .

* * *

فحوى هذا ، إن فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام



فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان — علما ودينا — فى موضعه

الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح إنه « ابن ذكر وأنثى » وإنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شعوبًا وَقبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »

« سورة الحجرات »

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود ، وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

* * *

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فإنما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة . فينجم عن هذا ما لا بد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة ، وتزداد « الانسانية »عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بخالقها ، واقترابا فيما بينها ، وتضطر إليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلوَانِكُمْ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالمِينَ » « سورة الروم »

وهذا هو حكم القرآن فى وحدة بنى الانسان ، وفى تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »

« سورة يونس »

* * *

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ »

« سورة البقرة »

* * *

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ »

« سورة هود »

* * *

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »

« سورة المائدة »

* * *

إن هـذه الوحـدة فى صلة الانسان بالانسان مشدودة الازر بالوحـدة بين الناس كافة فى الصلة بالله — ربهم ورب العالمين — الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقـرب إلى التقوى واستباق الخيرات :

« وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »

« سورة البقرة »

* * *

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ . فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »

« سورة الكهف »

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »

« سورة الأنبياء »

« قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ »

« سورة الأنبياء »

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم أن يتريث علماء المقابلة بين الأديان طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة ، وفى تاريخ الفكر ، وفى تاريخ القيم الأخلاقية ، بل فى تاريخ الحياة الانسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول إلى هذا الأوج السابق الذى ارتفعت إليه بعد ألوف السنين ، وما كانت لترتفع إليه بعمل ولا عقيدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين ..

إنها لم تكن كلمة فى موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول فى تسبيح المعبود كيف يقول ..

إنها لم تكن لفتة من لفتات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد فى تيه من السحر والكهانة ، ثم لا تبالى أن تعود إلى خلفها كما تعود إلى أمامها ، على غير هدى ..

لو كانت كذلك لذهبت فى غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ بها أو استمع إليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغه لو لم يعتدل إليه فى مطلع الطريق ، وهيهات — على غير هذه القبلة — أن ينتظم للانسان مسلك معقول إلى الرشد والضمير ..

إن قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب لا ينظر إليها ..

وإن هذه القيم لغو عند إناس يحيق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط عليهم الغفران وما صعدوا إليه ويتقبلون بين النقمة والنعمة بغير جريرة من اثم وبغير شفاعة من توبة ، وبغير نية ولا نية للتفكير ..

إن العالم الانسانى كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب العالمين ، وإن قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وإن « الانسانية » الجامعة شىء لا وجود له قبل أن يوجد « الانسان المسئول »

وإنما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانسان والانسان مع الإله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم إلى الخيرات .

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة ، وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الانسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هى هذه التقوى ، وعلموا حقا إن موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « التقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تسابيح المعابد ، ويخيل إليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل .. فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طالب لهم من ألوان التبعات

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الفدم ، وللمجدود على المحروم ، وللغنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل — بالايجاز — على كل مفضول

وما من ميزان ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ،

إلا خذلهم فى طائفة غيرها • • بل فى أكثرها وأحوجها إلى الموازنة والتفضيل

فليست «جملة» الانسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين • فإن العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء •• ولكنه قد يؤب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ولكننا إذا حكمنا بأن إنسانا يفضل إنسانا بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لا مراء فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الانسان ، وكل قيمة تحسب للانسان فهى داخلة فى هذا الحساب ، فان جهاز أن تهمل ويبقى الانسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهملة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الانسان ••

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »

صدق الله العظيم •• إنه لهو القسطاس الذى ينشىء « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة وإلهاما من الوحى الإلهى وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحى الإلهى فى هذه المساواة إنها قد شرعت للانسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم وإجراء من « إجراءات » السياسة فى إبان الخطر المطبق ، خيفة من ثورة النفوس وتنافسا على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب •• فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ، ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحى رب العالمين • ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث إلا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشىء يسمى الديموقراطية ولا رضخ « الديموقراطيون » المتأخرون بشىء لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات • ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الانسان الأول ..
خلق من تراب .. وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والارادة .
وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة ..
وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبه لارادته وانتصارا لعقله على جسده ..
وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن فى هذه الآيات :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » «سورة المؤمنون»

« ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » **« سورة السجدة »**

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ، فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ » **« سورة الحجر »**

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . قَال : إِنِّى أَعْلَمُ مَالاَ تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَال : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالوا : سُبْحَانَكَ لاَعِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ

أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبأَهم بِأَسْمَائِهِمْ قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالمين . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . . . » « سورة البقرة »

هـذه قصة « نشأة « آدم » فى القـرآن ..

وهى إحـدى قصص الخلق والتـكوين ، وفى هـذه القصص جميعا من أمر الغيب ما هو حـق الايمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منـه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الانسان وسائر الأحيـاء

ولبـاب القيم جميعا إن الفضيلة العليـا إرادة وتجربة ، وليست منحـة يبطل فيهـا التصرف ويمتنع فيهـا التمييز ..

فإذا جـردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولـكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منـه الحسنة كما تأتى منـه السيئة لأنه لا يميز بينهما ولا يريدهما ، ومخلوقا تـكلفة الحسنة جهـدا ويريدها لأنه يعـرف فضلها ويصبر على المشقة فى سبيلها ، فنحن قـد ذهبنـا بالتصـور

غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة ..

وعلينا أن نمعن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ الانسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين » على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال الفرض والتقدير

إننا نعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الانسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدمير التى تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن خلائق العقل التى تفردت فيها العقول عن الأبدان ..

والعقل الانسانى يأبى أن يصدق إن هذا الكون خلو من معدن العقل إلا أن ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الانسان

أقرب إلى تصديقه — ولا نقول أقرب إلى إيمانه وكفى — أن سياسة الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان إلى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز ..

تلك سياسة الخلق التى أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم مداها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التى تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان المرسوم بالانسان ..

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم ..
إن النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء إلى الخلاق الحكيم

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يرسم مسلك الحياة من المبدأ إلى المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فانه لعلى الجادة فى كل مكان يردها إلى الأرض ولا يقطعها عن الله

الكتاب الثانى

الإنسان
فى مذاهب العلم والفكر

عمر الإنسان

نبدأ هذه الفصول عن الانسان فى مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان فى هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة النوع الانسانى مرتبط بكل بحث عن أصل الانسان فى جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، فى تقرير مكان الانسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء

ونرى إن هذا المذهب أول المذاهب التى يتعين بحثها هنا ، لأنه أحرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذى يقصر على موضوعه الأصيل ، فانه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون باعادة النظر فى موضوعاتهم للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده .. فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التى جاء بها النشوئيون ..

وسنبسط القول فى هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع فى حيز هذه الرسالة ، لأنه — على كل فرض من الفروض — دعوى فى قضية الانسان يستمع إليها ولا تهمل كل الاهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها — كما نعتقد — أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التى وصل إليها النشوئيون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة إلى حين . ولنبدأ بالكلام فيما يلى عن عمر الانسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شىء منه وبين شىء مما ورد فى آيات القرآن

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الانسان ، ولا نعلم إن ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليقة غير الديانتين البرهمية واليهودية

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التى تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون بغير أجل معروف فى البداية أو النهاية • وعند البرهميين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة فى كل ثلثمائة وستين ألف سنة • وقد يزاد هذا القدر أو ينقص فى تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهى عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى • وكلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من دورات الوجود السرمدى عودا على بدء إلى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهى على حسب تحقيق الفقيه الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٩٥٦ ، تدل على ابتداء الخليقة فى شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد • وقد شرح أسانيده التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد Annales Veteris Novi Testaments

وأضيف هذا التاريخ إلى نسخة التوراة التى ترجمت على عهد الملك « جيمس » ، وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة فى متونها

وظل هذا التاريخ معتمدا فى طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير •• ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير السنين والأيام التى وردت فى صدد الكلام عن الخليقة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا إلى أن اليوم الشمسى وإن السنة الشمسية تساوى مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت فى اليوم الرابع كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التكوين •••

« وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنورا فى جلد السماء لتنير على الأرض • وكان كذلك • فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم

النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا »

* * *

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شىء يدعوهم إلى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين إلى بعض الكواكب إنهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققة لا تقل ثبوتا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء فى الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات ، فقاس النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر

أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا إلى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين

* * *

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون المسمى بكربون (١٤) تمييزا له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى • • فان العالم الأمريكى « ويلاردليبى » Willard Liby صاحب الدراسات المأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد — قبيل منتصف القرن — إن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون • لماذا كان هذا المقدار نصفا ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان ذلك المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألف ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير ••

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية — قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعا إلى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية ، وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة ، وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التى

وجـــدت فى الأقاليم الغربية من القارة الأوربية ، وإلى الطبقة الوسطى بقـــايا الانسان التى وجــدت فى أواسط القـــارة ، وأقـــدم من هـــذا بقـــايا الانسان التى وجدت فى القـــارة الآســـيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلهـــا فى القدم أو أقـــدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخـــر البقـــايا الانسانية التى وجـــدت فى القـــارة الافريقية جمجمة ، وجـــدها الدكتور « ليـــكى » Leakey — فى شهـــر يوليـــو ســـنة ١٩٥٩ — ووجـــد معهـــا بقـــايا حيـــوانات يظن الدكتـــور أن صـــاحب الجمجمـــة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صـــيدها أسلحة حجرية وجـــدت آثارها على مقـــربة منه ، وقـــد استقرت هـــذه الحفائر تحت مجرى « أولدفاى » بتنجانيقا وسمى هـــذا الانسان باســـم علمى معنـــاه الانسان الزنجى Zinjanthopus ولقبـــوه فى الدوائر العلميـــة بلقب « كاسر الجوز » لضخامة فكه وضروسه ، ويقـــدرون تاريخه بنحـــو ستمائة ألف ســـنة على حسب قيـــاس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنهـــا حســـاب زمن التحجر وزمن تـــكوين الطبقة وزمن التطـــور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان

وليس من المحقق أن يوغل التـــاريخ فى القـــدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن إيغالها إلى تلك الدهور كلهـــا أو ما هو أقدم منهـــا ليس بالأمر المستغرب فى أقيســـة الزمن أو أقيسة أعمـــار الحياة الانسانية ، بعـــد وضوح الحقائق الثابتـــة عن قـــدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء

والمحقق كذلك أن الانســـان القديم الذى دلت عليـــه تلك البقايا ، كان يســـتخدم الآلات الحجرية ، ويســـتعين فى كفـــاح أعـــدائه من الحـــيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيـــوان منهـــا ، فهـــو فى أقـــدم عهـــوده مميز بالعقـــل والنطق وهمـــا صفتـــان إنسانيتان لا تنفصـــلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان النـــاطق من اعتـــدال القـــامة ومطاوعة اليـــد للارادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لمـــا اســـتطاع

الانسان أن يستخدم السلاح وأن يصغه لاصابة الحيوانات الضارية من بعيد ..

* * *

أما الانسان فى مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعنى بانسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية فى مصالحه المشتركة • وقد وجدت فى وادى النيل آثار الانسان المقيم الذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض فى تدبير طعامه وأسباب معيشته ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى الطلاسم السحرية أو إلى أشكال الزينة ، وإنها — على هذا — لتعتبر مقدمة لازمة نشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع

* * *

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل فى صدد الكلام عن تاريخ الانسان ، وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل

كان هيرودوت — الملقب بأبى التايخ — يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى فى كتابه الثانى عن كهنة الفراعنة إنهم يقدّرون تاريخ الدولة ممن عهد ملكها الأول بثلثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت فى مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية فى التقويم القديم وهذه السنة الشمسية فى تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، ولا سبيل إلى إدراك هذا الفرق فى أمة تجهل الرصد

والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور فى تاريخها الطويل [1]

* * *

ومما يذكر ، ولا يهمل ، فى صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التى سماها القارة الأطلسية ، وذكرها فى كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيماوس » Timaeus و « كريتياس » Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا فى الحضاره تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار فى مجاهل الماضى المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت فى موضع المحيط الأطلسى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت فى إحدى الكوارث الكونية التى قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها إلا بعض الجزر البركانية .

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

إلا أن الغالب على المحدثين أن يبتغوا فى هذه الراوية منهجهم « التقليدى » فى كل رواية ، تخلفت من العصرر الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبوها جملة واحدة فى عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية فى مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خليق أن يوطد الاقدام على بر

---

(١) يرجع إلى كتاب فيلوكفسكى Velikovsky عن العوام المتضادمة .

الأمان ، ويسمح للباحث بالتردد فى الانكار كما سمح له من قبل بالتردد فى القبول ، بل بالتعجل إلى الرفض بغير حجة لا موازنة بين مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه — عقلا — من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات •

وإذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينبىء الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولا وعرضا بإزاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات المفقودة من عالم الأسرار إلى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير المحيط الأطلسى ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهر والأغوار ، وتلك هى قارة « مو » Mu التى ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد chruchivard كتابية باسم «قارة مو المفقودة» و « أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد ، ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغووية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه :



وعلى عهــدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القــارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه

« إن قارة « مو » كانت قارة واســعة تقع فى المحيط الهــادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها إلى الجنوب قليــلا من خط الاستواء •• ويقــدر طولهــا من الشرق إلى الغرب بســتة آلاف ميــل ، وعرضهــا بين الشــمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقــد دهمهــا زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر ألف سنة ، فابتلعتهــا لجج المحيط وغاص معهــا إلى قراره نحو ســتين مليون إنســان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبنــاء الهنــد والصين وبورمة والتبت وكمبوديا وأواســط أمريكا ، ومنهــا نقوش ورقوم شــوهدت فى جــزر المحيط الهــادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقــدمين وتتوافر حولهــا الأســاطير بين بقــاع الدنيــا المتراميــة على أرجاء الكرة الأرضية • وقــد خطــا الانســان خطواته الأولى فى سبل التقــدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبــة القــارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم نصل إليــه حتى الآن فى حضارتنــا الراهنة ، لأن حضارتنــا لا تدعى لهــا عمرا أطول من خمســة آلاف ســنة وهى مرحلة قصيرة بالقيــاس إلى الشــأو الذى يدركه الانسان العــاقل بعــد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف ســنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهنــد إلى بابل ومصر إلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القــارة العريقــة ، وقــد فسر المؤلف ما عثر عليــه من الرموز والرقوم واعتمــد فى بعض تفسيراته على كهــان المحاريب البرهميــة وعلى حلول الطلاسم التى انتهى إليهــا قراء الكتابات القــديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنهــا آثار المــايا وآثار الفراعنــة •• ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنــده فى كل ما بسط القول فيــه من أخبــار تلك القــارة ، ولكنــه رأى ما يراه كل قارىء لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقــة حلهــا كمــا شرحها مشفوعة بأسانيــدها وبالأدلة التى تؤكد معانيهــا ، وقــد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضهــا يمتــد فى الأزمنــة المــاضية إلى سبعين ألف ســنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة « مو » نفسها جــد قليــلة ، وغاية ما أمكن العثور عليــه من الآثار المتصــلة

بهـا أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع تاريخهما على الأقل إلى نحو عشرين ألف سـنة إذا كانا من مخلفات الحضارة التى بقيت على أرض القـارة الآسيوية بعـد الزلزال وقبل الطوفان ، وقـد يرجع إلى آماد أبعـد من ذلك جـدا إذا كانا من مخلفات « مو » التى نقلت إلى بلاد القـارة الآسيوية .. »

* * *

والجديد فى قصة هـذه القـارة كما رواها مؤلف كتابى القـارة المفقودة وأبنـاء « مو » ، أنهـا تحدثنـا عن الانسان « المتـدين » فى تلك العصـور السحيقـة ، وأنهـا تصف لنـا هـذا الانسـان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصـة التدين وبين هـذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحيـاء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشوئيين الذين جعلوا الانسان نوعا من هـذه الأنواع بغير مزية تفصله عنهـا سوى مزية الارتقـاء ، وقـد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليقـة ، وعن نكبات الانسان فى العصور الغـابرة ، كمـا جاءت فى الآثار الأولى وفى كتب الأديان الباقيـة ، وغاية ما نقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معـا أن مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التـاريخ ليست مما يهمل فى سياق يعرض لتاريخ النوع الانسانى ولمكان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتـان : منهم من يعمم تطبيقـه على الكون كله بمـا اشتمل عليـه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنـات العضوية التى تشتمل على النبـات والحيوان والانسـان ، ولا تحيط بمـا عـداها من الموجودات غير العضوية ..

والقـائلون بالتطور العـام يواجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الايمـان بالخـالق ، فى كلامهم عن العـالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولا منـاص لهم من التعرض لهـذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الأحيـاء ، يرجعون فى تعليـل تطورها إلى عوامل الطبيعـة وما تشـمله من مؤثرات البيئـة والمنـاخ وموارد الغـذاء ووسائل الحصول عليـه ، ولا يضطرهم القول بهـذا التطور إلى التعرض لمـا وراء هـذه العوامل الطبيعية باثبـات أو إنكار .. فقـد تكون عوامل الطبيعة فى مذهبهم خاضعة لقوة عاليـة فوق الطبيعـة ، تودعهـا ما تشـاء من النظم والنواميس ، ولا يتنـاقض القول بالنظم الطبيعيـة عندهم والقول بمـا وراء الطبيعـة ، على حسب العقـائد الدينيـة أو المذاهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فـلا بـد أن يسبقه السؤال عن القوة التى تملك تسيير هـذا الكون منـذ الأزل إلى غير نهـاية ، ولا بـد للقـائل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البـداية والنهـاية .. وهى لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتهـا

فاذا كان تطور الأحيـاء يرجع إلى عوامل البيئـة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع إليـه تطور الكون منـذ البـداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التى لا أول لهـا ولا آخر إذا قيـل أن الكون موجود بلا ابتـداء ولا ختـام ؟

إن أشـهر القـائلين بالتطور العـام هربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط إلى المركب ، وقال عن تطور الحيـاة

أنه توفيق دائم بين مطالب البنيــة الحيــة وبين ظروفهــا الطبيعيــة ، ولهــذا يحدث التغير للبنيــة ثم يحدث لهــا التوسع والامتــداد ، وتترقى فى وظائفها تبعــا لاتساعهــا وامتــدادها ..

وقــد عرضت له قضية البداية الأولى فلم يدخلهــا فى حــدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنــه قسم الحقائق الكونيــة إلى قسمين بالنسبة إلى المعرفة الانسانية : أحدهمــا حقــائق الأشــياء فى ذواتهــا وفى أصولهــا الأولى وهى القسم الذى لا يدرك ولا يتقبل الادراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقــائق الأشــياء فى ظواهرها المحــدودة وهى التى يستطيع عقل الانسان أن يدركهــا بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيهــا عمل التطور إما باســتخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هــذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام

وأصحاب هــذا الرأى من القــائلين بالتطور العــام — على ترددهم فى مسألة الأصول الأولى — لا يتجاهلون هــذه الأصول ، ولا يفوتهم أن القول بالتطور العــام يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات الكونيــة التى تصــدر منهــا الآثار المتغيرة وتفسر لنــا أسبابها ، وإن إطلاق القول بالتطور من مبــدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنــات العضوية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التى تحيط بتلك الكائنــات وتفعل فعلهــا أو تنفعل معهــا بمشاركتهــا ، ولكن أصحاب التطور العــام على مذهب سبنسر يسلمون بتلك المؤثرات الكونيــة ويتركون البحث فيها عجزا عن الوصول إلى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عنــد الآثار التى يدركونهــا ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسلكونه فى عــداد « المجهولات » التى لا تدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العــام الذين لا يذهبون مذهب سبنسر فى تقسيم المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للادراك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوسى هاملتون (١٧٨٨ — ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف الألمــانى عمــانويل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) فى الظواهر والحقــائق أو فى الأشــياء كمــا تحس وتدرك ، والأشياء فى ذواتهــا ..

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هــذه الأصــول عنــد أحدهمــا — وهو فريق المؤمنين — أنهــا من صنع الخالق الحكيم ، وأن القوة التى تصدر عنهــا آثار التطور فى الكون كله منــذ بدايتــه لا بــد أن تكون « قــدرة » فوق الطبيعــة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس

والفريق الآخر — وهو فريق الماديين المنكرين — يكتفى من التفسير بذكر العوامل التى ينسب إليهــا التأثير واعتبارها طبيعــة فى المــادة لا تفسير لهــا إلا أنهــا وجــدت هكذا ، ولا يمكن أن توجــد على صــورة أخرى غير التى وجــدت عليهــا

فاذا احتاج الفيلسوف المــادى إلى القول بالحركة الدائمة ، قال إنها عادة المــادة فى أصل تكوينهــا ، وإذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال إن المــادة المتحركة متغيرة بطبيعتهــا ، وإذا لزمه بعــد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض .. فهــذا القول عنــده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحــد ، وكذلك يفسر التقــدم والارتقــاء وهمــا يستلزمان الغــاية المرســومة والنتيجــة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المــادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنــا موضع كلمة الغاية المقصودة .. وليس عنــد الفيلسوف المــادى تفسير لهــذا التعــدد الهــائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتــداء تطــوره من وقت واحــد أو مبــدأ واحــد ، وجريان هــذا التطور على مادة واحــدة وقوة واحــدة . وليس عنده معنى لهــذا التقــدم أو غاية يتقــدم إليهــا غير انقضاء أجل الكون مرة بعــد مرة ، كلمــا انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التــأخر والتقــدم ، أو بين الهبوط والارتقــاء ..

وكل هــذه الفلسفة المــادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شىء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشــبه كلمة الجاهل الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحــده » ولا تفهم منــه علة لوقوعه أوضح من قول المــادى الفيلسوف إن المــادة تتغير لأنهــا متغيرة ، وتتقــدم لأنهــا متقــدمة ، وتنتقل من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض

لأن ذلك كله من طبائعهـا •• ولولا أن المـادى الفيلسوف يقرر مذهبـه فى التطور ليصل منـه إلى نتيجة فى المستقبل يوجبها على النـاس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العـام وسكوته عن تفسيره •• ولكنـه لو اختـار أن يتنبـأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختـار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعـة من طبـائع المـادة وطور من أطوارها لمـا كانت حجتـه فى إحـدى النبوءتين بأقوى من حجتـه فى الأخرى

* * *

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنـات يميلون — على الأغلب الأعم — إلى القصد فى التفسيرات والتعليـلات ، ويتجنبون البحث فى الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحيـاء تتحول وتتعـدد على حسب العوامل الطبيعيـة ، وأنهـا ترجع جميعا إلى أصل واحـد أو أصول قليلة لعلهـا هى الخلايا البدائيـة ••

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثـا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشوئيين العصريين على العموم ، ولكنـه رأى قديم قال بـه فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سـنبينه فى فصل آخر من فصول هـذا الكتاب ، وإنما الجديد منـه إسناده إلى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتـدأ القول به مع ابتـداء البحث العلمى على منـاهج العلماء المحدثين ••

قـال بـه العـالم النبـاتى السويدى كارل لينوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨) Corl Linnaeus الذى عنى بتصنيف الأنواع والأجناس فى دراسته للنبـاتات وبنى على هـذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحيـاء على التعميم •

وقـد كان لمباحث هـذا العالم أثر واسع فى البيئـة العلمية الانجليزية ، فأنشىء المجمع اللينى فى لنـدن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة إليـه

وقال بـه بوفون العـالم النبـاتى الفرنسى (١٧٠٧ — ١٧٨٨) Buffon الذى ألف كتـابه المفصل عن التـاريخ الطبيعى بمعـاونة الأسـتاذ دوبنتون Daubeaton وآخـرين ، واتخـذ من تصنيف أنواع النبـات رأيا يمـاثله فى تصنيف أنواع الحيوان

وكان من المعاصرين لهـذين العالمين اراسموس دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ — ١٨٠٢) جـد دارون الذى ينسب إليـه مذهب النشـوء والتطور ، فكان رائدا لحفيـده فى القول بالتقـارب بين الانسان والحيوانات العليـا ، وعاش معه فى عصره العالم الفقيـه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤ — ١٧٩٩) Lord monbodda صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيها » وكتاب « ما وراء الطبيعة فى العصور القديمـة .. » ومذهبـه فى تطور الانسـان ظاهر من بحثـه عن الأسباب الطبيعية لتطور اللغـة ، وعن العلاقة بين الطبيعـة وما وراء الطبيعة عنـد الأقدمين ..

ويتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى فى القـارة الأوربيـة من شمالها إلى جنوبهـا كان قـد تهيأ لدراسة الحيـاة والاحياء على أساس الوحـدة فى قوانين الطبيعـة ، ولم يكن ذلك مقصورا على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عنـد الألمـان والروس أن هـذه الآراء وجـدت من يقول بهـا على نحو من الأنحـاء ، وإن كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخـر بالسبق العـلمى بين الأمم الأوربيـة

ولكن مذهب النشـوء لم يعرف بتفصيله قبـل العـالم الفرنسى لامارك (١٧٤٤ — ١٨٢٩) Lamarck ثم العـالمين الانجليزيين : شارل دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) وزميـله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ — ١٩١٣) وعلى مبـاحث هؤلاء العلمـاء الثـلاثة يقوم على أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين فى اعتبـار العلمـاء إلى اليوم

* * *

وكل من لامارك وداروين ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التى تنتقل بالوراثة متى تغيرت فى تكوين الأفراد ..

ففى رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارىء من طوارىء المرض والاصابة ، وأن الصفات المكتسبة التى تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض أنها — لطول قوائمها — كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على بطلان هذا الرأى ببعض الصفات المكتسبة التى شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى فى الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الطول غاية الاحتمال ، ولا تزال بناتهن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التى تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنابه أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات — بالقياس إلى الآماد الطوال التى مرت على تطور الأنواع الحيوانية — لا يكفى للجزم بامتناع الوراثة على إطلاقها ، وأن إهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه — ضرورة — أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا فى قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها

ويلجأ النشوئيون — على رأى داروين ووالاس — إلى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها ••

فالزرافة — عندهم — لم تنقل صفة مكتسبة إلى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ اعالى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ما عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله — مع الانتخاب الطبيعى — لأن الأفضل من ذكور الحيوان وإناثه يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد

وليس مثل الزرافة فى رأى داروين بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لامارك ، لأن المعترضين عليه يقولون إن قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف كما يبيد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وأن ذكور الزراف أطول أعناقا — فى الغالب — من إناثه ، فهى خليقة أن تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق ••

إلا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من داروين ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى •• فلو أن داروين نظر إلى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر إلى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على الجرى بفعل الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى فى وقت واحد ، لأنه يفلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرته ندرة المرعى إلى الانتقال من مكان إلى مكان ، وقد صح تمثيل داروين بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض



وبعد المقارنة بين الرأيين — رأى لامارك ورأى دارون ووالاس — يتضح أنهما ينتهيان إلى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فان لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فهى منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد إلى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطىء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشوئيين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك أن دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الايجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول أن الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن إبادتها ، بدلاً من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى إلى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، أن تنتهى إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وإن أسباب الفناء عجزت عن إبادتها كما أبادت غيرها • وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومه •• فانها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وإن قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق ••

وقد كان خطأ النشوئيين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات) Genetics وظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chromasome الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات إلى الأبناء •• فكل صفة لا تكمن فى الناسلة ولا تحتويها صبغية من صبغياتها فهى صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج — أحد ثقات هذا العلم — إن الانتخاب الطبيعى — لأجل هذا — لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل

نشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع البقاء ، ثم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعى فى المستقبل عند التفاوت فى تلك المزايا الموروثة بين الأفراد • وإنما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفى لاحداث التغيير المطلوب فى الناسلة وفى صبغياتها التى تنقل تلك المزايا بالوراثة ، وقد أمكن العلم بالخواص التى تنقلها كل صبغية من الصبغيات فى بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير فى الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال إن الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل إذا نفذت إلى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجىء كما يعللون الاختلاف الطارىء على النبات فى الألوان والأحجام والأشكال ••

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث فى أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدى التجربة فعلا إلى ظهور خاصة فى الحشرة تغير ذريتها فتخالفها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة إلى « مندل » صاحب التجارب المشهورة فى وراثة الحبوب • ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم « الدرسفيلة » Drasophila •• فان تعريض الذبابة منه للأشعة بغير ذريتها ، فتأتى مخالفة لها فى لون العين أو فى طول الجناح • ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك فى أجيالها المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب إلى الأعقاب ••

* * *

ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذاهبه قبل تقدم علم الناسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة الناسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين صفات الانسان الفكرية والروحية ؟ ••

إن النشوئيين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية وأجابوا عنه إجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ، ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، وداروين يقول إنه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من النشوئيين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم ، فان ابن سينا — مثلا — كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب إلى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة ، فيقول إنه لا ينبغى هذا الفعل ولكنه ينظر إلى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشوئيون جميعا على منهج بوفون وداروين أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين — وعلى رأسهم ارنست هكل — ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته إلى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتنزل فى جذورها إلى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية Marnasets وقلما تحتمل الجو فى الأقاليم الشمالية ، ومن دونها الليمور Lemuy قرد مدغشقر ، وهو موضوع فى شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشوئيون القردة العليا — صعدا — من الجيبون إلى الأورانج ، إلى الشمبانزى ، إلى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين .. فأدناه ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج إلى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نمو

الدماغ مرتبط بدرجة اعتدال العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشوئيون إن « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المذنبة ، وتتدرج — صعدا — إلى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحول اليد إلى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار . ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالب القدمين واليدين

ويذهب أحد النشوئيين المحدثين إلى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السنين ، وإن القردة العليا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك المرتبة بكثير أو قليل ..

وصاحب هذا الرأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatech الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن إنسان جاوه الذى وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanth ropus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها إلى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون إلى ما دونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى إلى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد .. فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد ، وزنوج إفريقية والشمبانزى والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص التشريحية ..

* * *

ومن المفارقات إن هؤلاء النشوئيين النسابين لم يبلغوا بالقرد ذلك الشبه الذى تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس .. فان تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسى ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يباعد بين الكائنات المشوهة

والـكائنات السوية من أصـل واحـد ، ولكن شجرة النسب تحتاج إلى علم التشريح لالتقاط المشابه التى ترجح القـول بوحـدة الأصـول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثركيت — من أكبر النشوئيين المتأخرين — فى كتابه شجرة نسب الانسان : « إن الأستاذ وود جونس لفت النظر إلى بقـاء علامات كثـيرة فى تركيب الانسان قـد اختفت من تراكيب القـردة العليا وعامة القـرود ، وإن هـذه القـردة العليـا وسائر القرود قـد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ، ولست أرى أن هـذه الشذوذات تستدعى تعـديل شجرة النسب التى رسمتهـا هنـا ، ولـكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العنـاية بفهـم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحيـة أشـبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها .. فالغوريلا تولد فى أكبـادها الفصيصات التى تتـولد فى أكبـاد القـرود ، بينما تقترب كبـد الأورانج أشـد الاقتراب فى تركيبهـا المتماسك من كبـد الانسـان ، ولكننا ينبغى أن نفترض أن هـذين الحيوانين تحـدرا منـذ عهـود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبـده تركيب كبد الحيوان »

ثم يستطرد إلى بيان الشبه بين الانسان والقردة الافريقية فيقول : « إن الانسـان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيـوب تسمى بأسمـاء العظام التى تجاورها .. ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتـولد على حـدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هـذا النمط الانسانى فى كل من الشمبانزى والغـوريلا ، وإن كانت الجيوب فى الغوريلا وحـدها قـد اتخذت لهـا نمطا آخـر ، ومن الجائز أن نمطا آخـر كان موجودا فى أنف سلف الأورانج ويصعب التحقـق منـه بعـد انتـكاس تركيب الأنف كله فى هـذا العضـو الكبير من أعضـاء الحيوانات القـردية العليـا .. وقـد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقـرب استجابة إلى الانفعال بدم الانسان من جميـع الفقـاريات .. وتبلغ العلامات المشتركة بين الانسـان وكـل من الشمبانزى والغـوريلا نسبة إلى سائر العلامات التى أحصيتها تقـدر بثمانية وسبعة أعشار فى المـائة ، ولهـذا

أتوقع أن بقيـــة من بقـــايا المتحجرات تتـــكشف يوما فى إفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والانسان »



هـــذه هى العلامات التشريحية التى انتهى إليهـــا أصحاب شجرة النسب من النشوئيين المتأخرين ، وما عـــداها من العلامات ووجـــوه الشبه لا يعـــدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العـــامة التى يلمحها النظـــر لأول وهلة بغـــير حاجة إلى تشريح الأعضاء ، وقـــد أحصاها الأستاذ « شابمان بنشر » Pincher فى كتابه عن تعليل التطـــور ، ثم عقب عليهـــا قائلا : « إنه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كمـــا نعرفها ، لأن القـــردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منـــه تركيب الانسان ، إذ كان الانسان قـــد نمـــا له خلال مليـــون ســـنة دماغ أكبر وقامة أقـــوم ويـــد — فوق هـــذا وذاك — أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال »

وهـــذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النـــوع البشرى وســـائر أنواع الأحيـــاء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنـــه النشوئى فيقول أنه ســـبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفـــارق الروحى فى تعبير الدين

التطور قبل مذهب التطور

إن اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمنة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتواتر فيها الأخبار والأساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالانسان .
ومرد هذه الأخبار والأساطير — على الأكثر — إلى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التى تلزم للحمل والولادة وإمكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل فى النوع الانسانى فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من الأنواع الأحياء

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها .. ولكن لعلة غير تلك العلة ، مردها — على الأرجح — إلى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء .. ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله فى التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء فى مباحث الكيمياء ، ثم جاءت فى مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابى فى شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » إن « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تتقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، إلى أن تنتهى إلى أفضلها الذى لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة ، والأفضل منها الأسطقسات ثم المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابى على هذا الترتيب فى التفرقة بين الانسان والانسان ، بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى

ويقـول الكتبى (١) وهو يتكلم عن طبائع القـرد : « إن هـذا الحيوان عنـد المتكلمين فى الطبائع مركب من إنسان وبهيمة ، وهـو من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى الانسان »

ويقول القزوينى صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام إلى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليـوم تقسيمها إلى العضوى وغـير العضوى ، إن « أول مراتب هـذه الـكائنات تراب وآخرها نفس ملـكية طاهـرة ، فان المعـادن متصلة أولهـا بالتراب أو المـاء وآخـرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعـادن وآخره بالحيـوان ، والحيـوان متصل أوله بالنبات وآخـره بالانسان ، والنفوس الانسانية متصلة أولهـا بالحيوان وآخـرها بالنفـوس الملكية .. »

وهـذا الانتقال من المشابهة بالجسد إلى المشابهة بالنفس شبيه باحتراس النشوئيين المحدثين عنـد التفرقة بـين الانسان من جانبه الحيوانى والانسان من جانبه الروحى أو جانب القـوى الأدبية الوجدانية ..

ويقول إخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم يا أخى إن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفهـا ممـا يلى الحيوانيـة النخل ، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشىء سـوى غبـار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثـم يصيبها المطـر فتصبح بالغـداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابهـا حـر الشمس نصف النهـار تجف ثم تصبح بالغـد مثـل ذلك من نداوة الليـل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكماة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيـع فى البقـاع المتجـاورة لتقـارب ما بينهـا .. وأما النخل فهـو آخر مرتبـة النبات مما يلى الحيوانية ، وذلك أن النخل نبـات حيـوانى لأن بعض أحواله وأفعـاله مباين لأحوال النباتات وإن كان جسما نباتيـا .. وفى النبات نوع آخـر فعله أيضـا فعـل النفس

---

(١) محمد بن شاكر بن عبد الرحمن الكتبى الدارانى ولد فى داريا من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ وأشهر كتبه المطبوعة « فوات الوفيات » .

الحيوانية ، وإن كان جسمه جسما نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك إن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات ، ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات .. وإن أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه لكان وبالا عليها فى حفظها وبقائها . فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها ، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة . فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك ازيادلة هى الاغتذاء والنمو والامتداد فى الأقطار واجتذاب ما يوافقه من

الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التى تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه هى الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد ، وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد ".

وهذه الحالة الزائدة فى النبات التى شرف بها على الجماد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شىء بعد شىء .. فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه فى حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فاذلك هو فى أفق الجمادات وقريب الحال منها .. ثم تزداد هذه الفضيلة فى النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذى يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله .. ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى كفضل الثانى على الأول ، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه ويصير فى أفق الحيوان ، وهى كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه .. إلا أنها — بعد — مختلطة القوى ، أعنى أن قوى ذكورها وأناثها غير متميزة ، فهى تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن فى هذا الأفق إلى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة .وذلك إنها إن قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات .. فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر ، كالنخل الذى طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها ، ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهى الاطلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء . وقد روى فى الخبر ما هو كالاشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه إلى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة الحيوان فى تنازع البقاء ، فيقول إن الحيوان : « إن كان ضعيفا لم

يعط سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدره على الحيل التى تنجيه من مخاوفه . وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح ، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر : والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين . فأما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية ، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها .. فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها .. »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الانسان ، وهو « الذى يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها ..

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه .. فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان .. وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها أنها خط واحد يبتدىء بالحركة من نقطة وينتهى إليها بعينها . ودائرة الوجود

هى المتأحدة التى جعلت الكثرة وحدة . وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على موجدها وحكمته وقدرته ووجوده ، تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

إلى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التى مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية ، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الإلهى ، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التى ترقيت منها أولا فأولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها فى وجودها ، وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يصل إلى ما قبله ، وإذا صار إنسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما حكيما تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملا الأعلى والملا الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين .. » .

وفحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعى ينتهى إلى غاية وسع الطبيعية من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى الملأ الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا فى كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة ، وهى ما سماه بالمركز فيقول : « إن أول أثر ظهر فى عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى — أثر حركة النفس فى النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء ، وللنبات فى قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنها مقسمة إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه فى

تهـذيب الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهى « مراتب القـرود وأشباههـا من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقته الانسانية ، وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا »

* * *

وأشـار ابن خلدون إلى هـذا التدرج — أو التطـور — فترقى به من المعـدن إلى القرد إلى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الاقليم وأحـوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « إن عالم التكوين ابتـدأ من المعـادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعـة من التدريج : آخر أفـق المعـادن متصل بأول أفق النبات مثـل الحشائش وما لا بـذور له ، وآخر أفـق النبات مثـل النخـل ، والـكرم ، متصل بأول أفـق الحيـوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهـا إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هـذه المكونات أن آخر أفـق منهـا مستعد بالاسـتعداد الغـريب لأن يصـير أول الأفـق الذى بعـده ، واتسـع عالم الحيوان وتعـددت أنواعه وانتهى فى تدريجه التـكوينى إلى الانسان صـاحب الفـكر والروية ترتفـع إليـه من عالم القـردة الذى اجتمـع فيـه الحس والادراك ، ولم ينتـه إليـه الفـكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفـق الانسان من بعـده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القـائلين بنسبة الألوان والطبائع إلى الدعوات أو اللعنات ، فيقول إن « بعض النسابين ممن لا علم لهـم بطبائع الكائنات ، توهم أن السـودان وهـم ولد حام بن نوح اختصـوا بلون السواد لدعـوة كانت عليـه من أبيـه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل اللـه من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنـه حام قـد وقع فى التوراة ، وليس فيـه ذكر السواد .. وإنما دعا عليـه أن يكون ولده عبيدا لولد أخوته لا غير . وفى القـول بنسبة السـواد إلى حام غفلة عن طبيعـة الحـر والبرد وأثرهما فى الهـواء ، وفيما يتكون فيـه من الحيوانات »

ويقــول فى موضــع آخر : « اســتولى الحــر على أبدانهم وفى أصــل تكوينهم ، فــكان فى أرواحهــم من الحرارة على نســبة أبدانهــم •• وكذلك يلحق بهــم قليلا أهل البلاد البحرية لمــا كان هواؤها متضاعف الحرارة بمــا ينعكس عليــه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقــدمين ما لعله يسبق إلى الوهم من القــول بتــدرج الــكائنات ، إذ يخيــل إلى الجاهلين بمعنــاه أنه يعنى الــكائنات فى درجــة درجة من مراتبه المترقية ، وإنما حقيقته كما قال الخازنى : « إننا إذا قلنــا إن الانسان بلغ حــد الــكمال وكان يوما عجلا فصــار حمــارا فغــدا حصــانا فأضحى بعــده قــردا ، فليس معنى ذلك إنه كان يوما عجلا فصــار حمــارا فغــدا حصانا فأضحى بعــده قردا حتى صار فى النهاية إنسانا »

فليس عنــدهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قــد تنقل قبل ذلك بين أطــوار الــكائنات التى هى دونه ، وإن كان جميــع المتكلمين فى أطــوار الكائنات الحيــة لا يمنعون إمكان التسافد بين بعض الحشرات والحيــوانات المختلفة ، كمــا جاء فى كتب الحيــوان جميعــا ، وأسهب فيــه الجاحظ على الخصوص إسهابا سلم فيــه كثــير من خــرافات المتقدمين عليــه واللاحقــين به فى هــذا البــاب ، وأكثرهم ترديدا لهــذه الخرافات القــزوينى صــاحب عجائب المخلوقات ، فهــو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحيــاء ، وعن الخلائق الأسطورية التى انقرضت ولم يبــق منهــا غير آثارها وأخبــارها ، وعجائب المخلوقات التى تتوافر الأحاديث عن وجودها فى الأطــراف النائيــة التى لم يصل إليهــا أحــد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمغــررين ، وهــذه الأساطير — كما قلنا فى غير هــذا الكتاب (١) — تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقــائق تلك الكتب « لأنهــا هى البقية الباقيــة لنــا من تلك الأوهــام التى تسلطت على العقــل البشرى فى أزمانــه الخاليــة ، وهى المفتاح الذى ليس لدينــا مفتــاح ســواه لخــزانة المخيلة ، وما أكنتــه من تصــورات الانســان ووجــدانه وما انطبع فيهــا من البدائه العميقة المتغلغلة

---

(١) كتاب الفصول للمؤلف •

التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهذا الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يشاكل منها فى البر والبحر ... فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا إنها تلد من خيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ويشبه الانسان إلا أن له ذنبا . وقد جاء شخص بواحد منه — على قول القزوينى — إلى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى الحاضرة إنسان . وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل ، فإذا رآه الناس يستبشرون بالخصب . وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فقيل للولد : ماذا يقول أبوك . قال : أذناب الحيوان كلها على أسافلها ما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم . ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح إلى جزيرة ... « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة فى فهم الصور البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الانسان وغرائزه الوراثية ، ولا بد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « مسودات » للادراك الانسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء فى الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتفكير فى البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه فى البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الدينى أو العلمى من أشباه هذه الحملات التى قوبل بها فى بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلى :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقى الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب فى دايتون (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذى حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التى سجلت أثناء المحاكمة بين محامى الدفاع وخبير الاتهام :

ــ هل تقرر أن كل ما ورد فى التوراة ينبغى أن يقبل بتفسيره الحرفى •

ــ أنا أقرر أن كل ما ورد فى التوراة ينبغى أن يقبل كما ورد فيه • وبعض ما جاء فى التوراة قد ورد فى سياق التشبيه ، كقوله : « إنكم ملح الأرض » • فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحا أو إنه كان له دم من الملح ، ولكننى أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار ••

ــ هل لك أن تخبرنى يا مستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

ــ كلا ياسيدى •• لست آدرى

ــ ولا على وجه التقريب ؟ ••

ــ لست أحاول •• ولعلى أقترب من تقدير العلماء ، ولكننى أحب أن أدقق كثيرا قبل الجواب

ــ إنك لا تعبأ كثيرا بالعلماء •• أتعبأ بهم حقا ؟

ــ نعم يا سيدى ••

— أتعتقد أن الكرة الأرضية صنعت فى ستة أيام ؟

— ستة أيام نعم •• ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان إلى التشهير بالعقائد الشائعة وبالمذاهب العلمية التى كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التى رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء

إلا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق فى تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى إنكاره بالأدلة العلمية التى استند إليها العلماء ولا يزالون يستندون إليها إلى هذه الأيام ••

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على إعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث • ب • بيشوب وسماه « النشوء منتقدا » (١) ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل إبراهيم إلى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشوئيين بالدليل •• لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن إنسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون •• حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « إنه المحتمل جدا

(١) Evolution criticised

أن السجلات الجيولوجية الباقيـــة لا تحملنـــا إلى أبعـــد من منتصف العمـــر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليـــل ولا قرينـــة تؤيد القول بتطـــور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليـــل يؤيد تحـــول الأنواع فى عالم الحيـــوان أو عالم النبات ، وإن تشابه الأجنة الذى يتخـــذه بعض النشوئيين دليـــلا على التشـــابه القـــديم بين أنواع الحيوانات دليـــل مكذوب . لأن صـــور الأجنـــة الصحيحة لا تبرز هـــذا الشبه ، وما عـــدا ذلك من الصور المتشابهة فهـــو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمـــانى ارنست هكل ، فانه أعلن بعـــد انتقاد علمـــاء الأجنـــة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المـــائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول .

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند إلى أقوال العلماء المختصين .. فقال إن حصان الحفريات على أقـــدم صوره لم يثبت من نسبته إلى نوع الخيل غـــير الأسنـــان ، وإن الطائر الذى قيـــل إنه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنـــان ، وأيا كان نظام التطـــور بالنسبة إلى الخالق فالعالم النشوئى الأمين على علمـــه لا يتخـــذه سببـــا من أسبـــاب الالحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنـــا بالعقـــل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، إذ يقـــرر جازما باعتقاده « إن ما تتطلبه — إطلاقا — ولا منـــاص من الاســـتدلال عليـــه ، هو ذلك العقل الذى هـــو أسمى وأعظم وأقوى من كل هـــذه العقـــول المتفرقة التى نراها حولنـــا وإنه لعقـــل لا يقـــدر على تسيير هـــذه القـــوى العاملة فى الأنواع الحيـــة وعلى إرشادها وتدبيرها وحسب ، بل إنه لهـــو بذاته ينبوع تلك القـــوى والعوامل ، وينبوع لمـــا هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المـــادية .. »

* * *

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيهـــا النقاش حول أصل الانسان أنهـــا ترتبط بالمحن « الروحيـــة » التى تثيرها مشـــكلات العـــالم الـــكبرى ، وأكبرها فى القـــرن العشرين مشـــكلة الحرب العالميـــة الأولى والحرب العالمية

الثانية ، وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد فى هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التى تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث فى مذهب النشوء بما دعت إليه من بحوث متشعبة فى تنازع البقاء وإرادة القوة ، وفى تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفى هذه السنة — سنة ١٩٤٥ — تدفقت الكتب التى تعرض لهذه المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين فى هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين فى حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر فى أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما أطلعنا عليه كتاب « الله والانسان فى الكون » (١) الذى توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرفون وجهات النظر « الكاثوليكية » فى تحقيق كل فلسفة تبحث فى الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعى وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث فى مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التى تتوالى فى كل زمان بأسلوب وعنوان

* * *

وقد استفاد مألفوا هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التى انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين فى الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا فى التفصيلات التشريحية التى كانت مجملة فى الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الإنسان ، ولا سيما الفارق المميز للإنسان الناطق .. وهو قوام الفصل بين النوع الآدمى وعامة الأنواع العليا .. فهذا الفارق الواسع فى الملكات العقلية يقابله فارق دقيق فى تكوين الدماغ ، يبيِّن استحالة النطق بغير هذا التركيب الإنسانى الخاص بدماغ الإنسان دون سواه : فالرأس

---

(١) God, Man and the Universe

الانسانى يحتوى جميع المنـاطق التى وصفناها فى رءوس القـردة ، ولكنهـا تتحصص بمناطق أخـرى تسـمى بالمنـاطق الثـانوية •• أبرزها تلك المنطقة الخاصـة بمراكز الألفاظ الكلامية . وهى مستحيلة بغـير الاتصـال الوثيـق باجهـزه الـكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مـع جهاز التنفس سواء من جانب حـركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك •• فهنـاك مركز للنطـق فى مقـدمة مراكز الحركة فى الوجه . ومراكز بصرية للـكلام فى المنطقـة الجدارية . ومراكز سـمعية فى الفص الصـدغى . وفقـدان مراكـز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطـق بغـير تعطيـل عمـل اللسان والشفتين •• كذلك تستتبع آفات البصر عجزا عن قـراءة الكلمة المكتوبة ، كمـا تستتبع آفات السـمع عجزا عن فهـم الـكلمة الملفوظة وإن تيسر سماعها • ويضـاف إلى هـذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضـهم أنهـا مقـر لأدق الوظائف السيكولوجية •• ولا يوجـد غير الشمبانزى بـين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف » •

* * *

وعلى هـذه الوتـيرة المطـردة يؤدى هؤلاء العلمـاء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعى » لإبراز مواضـع الشبهة فى أدلة مـذهب النشـوء وقرائنه التى لم ترتفـع إلى قـوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حـدود المقـررات العلميـة ، ولا يدعـون فارقا خفيـا منهـا وضـحوه وكبروه وبلغـوا به غاية الشك ، وباعـدوا غاية البعد بينـه وبـين مرجحات اليقـين ، ولـم يقصروا ذلك على الأدلة أو القـرائن الـتى يسـتند إليهـا النشوئيون للقـول بتحول النـوع الانسانى من الأنواع الدنيـا •• بل شملوا به كل دليـل وكل قرينـة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسـماك والزواحف والطيـور والفقاريات ، ومنهـا المتسلقـات وغـير المتسلقات ••

* * *

وقوبل مذهب النشـوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه

بالأدلة العلمية . وطلبوا من دعاته دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى فى تحول الأنواع . ولا سيما نوع الانسان .. فالمعترضون عليه — طلبا للأدلة الطبيعية . لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعترضين الاهوتيين . وقد أيده أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده . فكان تحمسهم له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته واعترافا بكفاية براهينه . فمن هؤلاء العلماء — بل من أشدهم حماسة له — توماس هكسلى صديق دارون وصهره ومدره المذهب كله فى حياته . فانه لم يزعم قط إن أدلة الانتخاب الطبيعى المؤيدة لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ، وإنما كان يقول إن الانتخاب الطبيعى يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم نتقبل مبادىء الانتخاب الطبيعى . كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء لامارك . ويرى العالم البيولوجى الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعى ، إنما هى نظرية منطقية وليست بالنظرية التى تعتمد على شواهد التجربة والأدلة الحسية . قال فى رده على هربرت سبنسر : « إننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعى » وأن قول هربرت سبنسر « إنه إما أن تحدث وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق » إنما هو دليل منطقى وليس بالدليل التجريبى ، وهو مع ذلك ليس بالدليل اللازم فى قضايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالغرض المستحيل .

* * *

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعى إلى اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشوئيين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨) بدفع حاسم لشكوك المترددين فى قبول تحول الأنواع . وقد كتب دوبزانسكى **Dobzansky** أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون فى مجموعة : « قرن من دارون » [١] فلم

---

(١) **A century of Darwin**

يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التى تحول دون تلاقى الناسلات والصبغيات فى أرحام أفراد الحيوان المتميزة ، وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التى تحول دون تلاقى الفردين من نوع واحد أخذ فى التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والاناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام إلى تمام تكوين الجنين

* * *

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن من سلسلة الأنواع إلى سلسلة الناسلات Genes والصبغيات .. وإن الأمل فى الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد رينش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن « التطور فوق مستوى الأنواع » (١) ليشرح هذه الفكرة ويبين إن عزل النوع إنما يتم بانعزال ناسلاته وإن البحث فى تاريخ تغير الناسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول إلى الحلقة التى تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشىء شروطا جديدة للنسل والوراثة فتعتبر بذلك حدا فاصلا بين نوعين .. فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموغلة فى القدم ، ولكننا إذا اكتشفنا سر تطور الناسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحده أو على درجات متقاربة فهاهنا محل الحلقة المفقودة فى سلسلة الأنواع

---

(١) Evolution above the Species Level

مذهب التطور فى الشرق العربى

من خصائص مذهب دراون — على ما يظهر — أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض فى مواطن العقيدة والثقافة العامة .. فانه لقى فى الشرق العربى مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض فى البلاد الأوربية . وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرر هذا كله فى الشرق العربى كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه إلا بعد الثورة المفاجئة التى يظهر — كما أسلفنا — أنها مقدمة لا بد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه

وقد تصدى للرد عليه فى الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ؛ فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم

وقلما يتصور القارىء العصرى إن مذهبا كمذهب التطور يشيع فى الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها فى زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية .. لأن القارىء العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل إلى الأمم الشرقية وهى فى « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن فى شرقنا العربى حجابا دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربى المثقف فى حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب

التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب الانسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شىء كما تحدثوا عن مفاخر الأمم بالأصول الإنسانية وبالأنساب التى يدعيها السادة لأنفسهم وينكرونها على الرعايا المستبعدين .

* * *

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين ، ومنهم أهل السنة والشيعة ، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم العربى . وقد وصلت أصداء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائلين بهذا القول داروين وقد ألف كتابا فى بيان إن الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمنم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

« وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك . . فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، إلا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .. أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه ..

« وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد . ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا فى الألوان والأشكال والأعمال — فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ فى الجواب إلا إلى الحصر ••

« وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق من الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة •• فماذا تكون حجته فى علة اختلافها •• بل إذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها •• وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وابداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة فى عضو أداء وظيفته وإيفاد عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية •• ولا ريب إنه يقبع قبوع القنفد وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين ••

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه فى مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية

« وإنا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك إن الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية ، وإنما علة ذلك الضروره وعدمها • ونقول : إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان

البلاد الحارة •• والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ••

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من إن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم . ثم واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب •• كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت إذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان آلوفا من السنين . لا يولد مولود حتى يختن •• وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونا إلا لاعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة •• فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العاريه عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة فى نظام الكون علوية وسفلية •• والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متيبر ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتتجلى بهذه الأشكال والهيئات ، وعندما تظهر بصور الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلابسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية • هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ؛ وما هو أقرب إلى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين إن الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية — نسبة إلى ديمقريطس — ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما

يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين . فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء ..

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء الماده مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيها بما ينويه من مطلبه ؟ .. وأى برلمان أو أى سنات — مجلس شيوخ — عقدت للتشاور فى إبداع هذه المكونات العالية التركيب البديعة التأليف ؟ .. وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته إليهما ؟ .. »

* * *

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى » وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكربلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والأفرنجية التى وصلت إلى الشرق الإسلامى بعد كتابة « الرد على الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها إليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب حيث يقول إن دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتبا غير موجودة عندنا « وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الدينى وظننا إنه يوجب علينا المسارعة ، ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى دليل قد فرغ هؤلاء من إثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانا ، وأنا أقترح عليهم أن يخابرونا بما يجدونه منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الانصاف لا المكابرة »

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التى تخالف الديانة الإسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض

أدلة الالحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على إجمالها ، وقال فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق فى قبال اللادين المحض . لا للانتصار لدين على دين .. ولهذا ترانى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا إلا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة إلا ليسرى ازراؤه إلى الشرائع قاطبة .. »

وأنصف المؤلف مذهب النشوء . فلم يحسبه من مذاهب الالحاد والتعطيل لأن انقول بالنشوء لا يقتضى إنكار الخالق وإنما يتسرب إليه الالحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره . فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء إنها « ليست مما ينافى الدين ، إذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع إله واحد قادر حكيم قد وسع كل شىء علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار . وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وإنها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ، والجد الأعلى للفيل فيلا أو « سنونوا » يطير فى الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرحة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للالحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف إن هذه الآراء « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ،

والشجر من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا إلا بعد ما يجعله حامضا ، ولا يجعله حامضا إلا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف إلى تلخيص آراء النشوئيين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع إلى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا إلى القردة كما انتسبوا إلى غيرها من الحيوان ، ويرجع بعد ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد . ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه وإعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام جعفر الصادق على المفضل بن عمر الجعفى ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان فى كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التى بها يفهم من سائسه ما يومىء إليه ؛ ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ؛ حتى أنه ليقرب من خلق الانسان وشمائله .. أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وإنه لولا فضيلة فضل بها فى الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم .. على أن فى جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

وينتقل المؤلف إلى كلام الدميرى ، إذ يقول عن القرد إنه « أشبه الانسان فى غالب حالاته ، فانه يضحك ويطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشىء بيده وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشى على رجليه حينا يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشىء من الحيوان سواه فهو كالانسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الأناث ، وهما خصلتان من مفاخر الانسان ، فاذا زاد به الشبق استمنى بفيه ، وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى .. »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكى النفس الإنسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعا . فيقول ان الإنسان — كما يشابه القرد في أشياء — يشابه غيره من الحيوان في غيرها « بل لعل في الحيوانات الدنيا من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة .. وهذا الأستاذ الشهير « كوفييه » يقول ان ادراك القرد ليس أرقى من ادراك الكلب الا قليلا .. واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الإنسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الإنسان تحول قردا .. وهذا ما نص عليه الذكر الحكيم » .

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الإنسان والقرد ، مضى يناقش القرائن الأخرى التى يستند إليها النشوئيون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع الإنسانى من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات العليا ، فنهج في مناقشته على هذا المنهج الذى يستمد الدليل من أصول الجدل المنطقى تارة ومن تجارب الواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعاته المتفرقة لمراجع المذهب .. فلم يخطىء مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده الغالب على منهج النقائض الجدلية . ومن قبيل ذلك انه عمد إلى دليل من أقوى أدلة النشوئيين وهو بقاء الأعضاء الأثرية — كالثندوة — في ذكور الإنسان ، فتساءل : « لا أدرى لماذا بقى أثر عار الخنوثة ظاهرا في الإنسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه في سلم الارتقاء كذوات الحافر » ولم ينس أن يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده إلى ما قال الشيخ الرئيس في الشفاء « أن الفيل الذكر له ثدى كما للإنسان ، وذكور ذوات الحافر لا ثدى لها إلا ما يشبه أمهاتها وينزع إليها كما يعرض مرارا في الخيل » ..

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل في بابه

« الشذوذات » التى تعرض لتركيب بعض الأحياء : وهى أجنة فى بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام . أو ما يولد وقلبه فى غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانتقلت إلى هؤلاء التعساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ •• فإن لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل » •

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى — وهو سبب هام من أسباب التطور — كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لا يتوقف تلقيحها على الحشرات والطيور ؟ • • وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو أجمل ؟ •• ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب » •

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملحقة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام • • ولكنها لا تريدا مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدرى بهم يعلل هذا الحسن والانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد إلا بعد التلقيح » •

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قلتها ، وليس هذا الافتراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قلتها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال ان أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة

لكن بما يقربه إلى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا أنها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه الأنواع الموجودة • • وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معها فى الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنر وغيره : فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيده فى الأصل منها •• » •

قال : « وهذا الاحتمال •• وان لم أجد أحدا قال به فى أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات •• وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد •• وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها إلى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها • والمذهب الثانى أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ • • وعند الكاتب أن المذهب الثانى أقرب إلى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول •• » •

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه إلى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » ••

وانتهى المؤلف إلى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لا توجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغلب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو العالم الألمانى : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة

قريبة بين تلك الطوائف والقرود حتى يحتمل ارتقاؤها من القرود ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين المشهورين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الإنسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع المقطوعة منه .. فالأدلة على النشوء الفعلى قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولابد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية .. » .

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره . وشاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستندوا فى انكاره إلى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشوئيين بمزيد من الأدلة القاطعة لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفى فى مثل هذه الحالة أن تستند النظرية إلى الترجيح والتغليب أو إلى الظن والتقدير ، وقد يعزى إلى هذا السبب كثرة الدراسات التى تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة فى البلاد التى كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التى كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحورانى ، والأب جرجس فرج صغير المارونى ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطيه سوريال ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة

عنـه من تصـدى لمناقشـته بعـد ظهور كتب الدكتور « شـبلى شـميل » فى موضوعه ، وهى مؤيدة للنشوئيين المنكرين للأديان .

فالأسـتاذ ابراهيم حورانى — وهـو عالم لغـوى مطلع على المبـاحث العلميـة — ألف فى الرد على مـذهب دارون رسـالة « منـاهج الحـكماء فى نفى النشـوء والارتقـاء » ثم اتبعهـا برسـالة « الحق اليقين فى الرد على بطل دارون » وطبعها ببيروت (سـنة ١٨٨٦) ردا على مناقشـة الدكتور « شبلى شـميل » لرسـالته الأولى ، فصب حملتـه الـكبرى على موطن الضـعف فى المـذهب وهو افتقاره إلى الدليل القـاطع وتعويله على الشـواهد التى توحى بالرأى ، ولا تستأصـل الشـكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليـل لا يضعفه الاحتمال .

* * *

وقـد آثر الأسـتاذ حورانى أن يؤخر رأيه حتى يسـوق بين يديه آراء علمـاء الطبيعة المخالفين لدارون فى القـول بتحول الإنسـان عن غـيره من الحيوان ، قال « ان العلمـاء لم يثبتوا مـذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيـه مع علمهم أنه بحث فيـه عشرين سـنة ، ومنهم العـلامة ونشل مع أنه من أشـد النـاس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل الله .. ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصـته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصـدق على الإنسان ولابد من القول بخلقـه رأسـا .. ومنهم الأسـتاذ فرخو قال انه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسـان والقرد فرقا بعيـدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسـان سـلالة قرد أو غـيره من البهائم ، ولا يحسـن أن ننفوه بذلك .. ومنهم « ميفرت » قال بعـد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييـده وانه رأى من آراء الصبيان .. ومنهـم العـلامة فون بسكوف ، قال بعـد أن درس هو وفرخو تشريح المقـابلة بين الإنسـان والقرد أن الفروق بين البشر والقرود أصـلى وبعيـد جدا .. ومنهم العـلامة أغاسيز ، قال فى رسـالة فى أصـل الإنسـان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ما خلاصـته ان مذهب داروين خطـأ علمى باطـل فى الواقـع ، وأسـلوبه ليس من أسـاليب العـلم بشئ

ولا طائل تحته •• ومنهم العلامة هكسلى وهو من اللاأدرية وصديق لداروين ، قال أنه بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى ، ومنهم العلامة تندل وهو كهكسلى قال انه لا ريب فى أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها •• ومن المحقق عندى أنه لابد من تغيير مذهب داروين » ••

ويقسم الأستاذ حورانى أنصار مذهب النشوء إلى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية والهية •• « أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة •• وأما اللاأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لإثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى . وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة إلى اثنتين : ظنت احداهما الإنسان ابن القرد صنوه ومنها داروين . وقالت الأخرى بأن الله خلق الإنسان من البدء إنسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الالهى الذى قالت بامكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا » •

ثم أورد الأستاذ حورانى احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين فى المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لا سلف لها • وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شىء من بقايا الحفريات •

ويرد الأستاذ حورانى على استدلال النشوئيين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر • • بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الإنسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوز إلا لوزة » •

ويحيل النشوئيين إلى بحث التيرانولوجيا — أى المشوهات — لتفسير

الأعضـــاء الأثرية التى تثبت بعــد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أى من له ســت أصـــابع وهــو من أبســط الأمثــلة ، والأشــوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان . كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقــاد ولدتا ســنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين ســنة وكانتا مختلفتى السجايا والأخلاق .

وقال عن الانتخــاب الطبيعى إنه لا يمــكن « أن يــكون أس الارتقــاء الداروينى لأن الطبيعة إنما تؤثر فى الموجود ، وليس لهــا أن توجد المعــدوم ، فيمكنها أن تعمى العيــون .. ولــكنها لا تستطيع أن توجد البصر « ويقتضى مــذهب داروين أن لا تجمــع الأنواع الدنيــا والعليــا بل تتعاقب وتســبق الأولى الثانيــة أبدا ، ولــكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحيــاء »

وأضعف ما فى ردود الأســتاذ حورانى قــوله عن قــدم الانســان . إذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قــديما جــدا « ولكنه تبــين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوئيين وغيرهم إنه أحــدث الأحيــاء وإنه كان منــذ بضعة آلاف ســنة . وأثبت العلامة دوســون أنه كان فى ثانى العصر الجليدى وهو المعــروف بالأكثر أحدثية ، وفصــل ذلك فى خطبة له فى الانســان قبــل زمن التــاريخ .. وقال الدكتــور هــويدن : نظــرت أربع فــرق مستقلة من الجيولوجيين فى زمن نشــوء الانســان فاتفقت على أنه نشأ منــذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة .. » .

* * *

وفى إبان احتــدام المناقشة بين منــكرى المذهب ومؤيديه ، أصــدر الأب جرجس فــرج صغير المــارونى مــدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قــرنة شهوان (١٨٩٠) كتابا نهج فيــه منهج الحوار بــين خصمين ، سمى أحــدهما بالإنســان القــردى وسمى الآخر بالإنسان الآدمى ، وأدار الحجاج بينهمــا على هــذا المثل ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمى — أين تجدون أشــكال الانتقال من يــد قرد الى رجل إنسان ..

أفهل عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شيء من ذلك ... فالانسان القردى لا يكون له وجود ..

القردى — إن المباحث البالونتولوجية « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما يُعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات .. على أن أساتذتنا قد أجمعوا على إنه من المحتمل إن من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما يتحول إلى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وإن منها ما قد يتحول إلى الماعز ومنها إلى الخرفان ... الخ

الآدمى — فان كان ذلك من طوالع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقى الذى تعولون عليه .. ؟

القردى — نعم .. إننا لم نجد إلى الآن أثرا إلى الانسان القردى ، غير أن العلم لم ينه قضاءه

الآدمى — ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع .. فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وإن كثرت فيها الأنسال ، فاذا قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردى — ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شيء منه .. ؟

الآدمى — أو يكون الجهل فى أصل شيء أو فى علته حجة فى إنكار وجوده ، أفننفقه ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق .. ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها .. إنا نعلم إن المولود من قران الفرس والحمار لا يكون إلا عاقرا ، فنقول : لا بد من فرق نوعى فى مولده ، .. أفجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من إنكار وجوده ..

القردى ... إلا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بامكانية مذهب التحول ..

الآدمى — لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : إن الله سبحانه قد جبل آدم من تراب

قد عركه كثير من المولدين من الخازباز إلى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال .. ومن العجيب كيف لا يفقهون إن هذا المذهب إنما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

القردى — أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

الآدمى — إذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس بنفس .. أما هذا التعويض فيتم إما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم إقامته أو ملاشاته ثم إقامة آخر بدله

القردى — قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول إن التمايز إنما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى ، فما قولك فيه ؟ ..

الآدمى — قد سبقهم إلى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة .. ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل الصدفة فى تمايز الكائنات

إن الصدفة لا تقع إلا فى الأشياء التى يمكن لها أن تكون على خلاف ما هى .. فقد يمكن للطاولة التى يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التى هى من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التى تصدر عن فاعل لا يصادمه فى فعله شىء كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادمها فى فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة .. أتظن إن للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ..

.. ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال إنما تلى تمايز الأشياء ولا تسبقها .. أو لا ترى إن السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل

من آلاتها فى موضعه على هيئـة من التمايز لا ينبغى أن يشوبه أدنى خلل »

* * *

ويفضى هـذا الحوار إلى عجز « الانسان الفردى » عن الجواب فيتبعه صاحب الـكتاب بمناقشة مطـولة لمذاهب المـاديين يستند فيهـا إلى حجـج الفلسفة اللاهوتية ، ويقـرر فيهـا أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفى لتحقيق النظر فى أصـل الوجود من حيث هو موجود ، ولهـذا سمى البحث عن أصـل الوجود بما بعـد الطبيعة لأنه « ينبغى أن يقـرأ هـذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمـراد به علم يبحث عن الوجـود من حيث هـو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطـع النظر عن معنياتها وأحوالهـا الخاصة التى ينحاز بهـا الشىء عمـا سـواه ، وعلم يبحث به عن الأسـباب الأخـيرة للوجـود والمعـرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ؛ لأن مبـادىء المعـرفة والعلم العـالية المطلقة إنمـا هى التى تمكننا من الوقوف على أسـباب الوجود .. ولذلك فانه يكون علم العلوم »

* * *

ولا نعلم إن كتابا فى هـذا الموضوع بقلم باحث مسيحى من كتاب اللغـة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين فى حقيقة مذهب داروين » لمؤلفـه الأسقف خـير اللـه اسطفان ناظر مدرسـة عين ورقة الذى ألفـه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سـنة (١٩٢٩) أعيد فى خلالها طبع مؤلفات الدكتـور شبلى شميل فى هـذا المـذهب ، ونشط البحث بـين الأوربيـين فى نظـريات النشوء عامة على أثر البحوث المتضـاربة فى نظريات تنازع البقـاء وإرادة القـوة وما إليهـا من « الفلسفات » التى أثارتهـا الحـرب العالميـة الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقـد أشـار الأسقف إلى الأطـوار التى مرت بمذهب دارون منـذ إعلانه إلى تلك السـنة ، فنقـل كلاما عن العـالم الألمـانى ادوارد فون هارتمان قال فيـه إنه « فى سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفـذاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شـديدة ، وفى سنة السبعين أخـذت هـذه النظرية تنتشر فى كـل صقع تقريبا ، وفى سنة الثمانين

كان نفـوذ المـذهب الداروينى عاما ومطلقـا حتى كـاد بسـموه سـمت الرأس ، وفى سـنة التسعين بـدأت بعض الشـكوك تعتلى وبعض المقاومات تظهـر ، وعلامة التصدع والانهـدام تبينت واتضحت ، وفى العقد الأول من الجيل العشرين بـدأت أيام المذهب أن تـكون معـدودة ، وكان بين مضـاديه وداحضى حججه من أعـلام العلمـاء ايمـر ، وغوستاف وولف ، ردى فـريز Vrise وفـون والشـتين Wallstin وفيلشمان Flischmann ورينـك Rienk وغـيرهم كثـيرون »

وبعد هـذا التهديد عرض الأسقف للبحث من الناحيـة اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمى عنـدما يأتى بنتائج واقعية أكيـدة تجتمع ساعتئذ كلمـة العـالم المسيحى وغـير المسيحى عليها على غـير تصاد ولا تناف ، وهذا هو عـين الصـواب والرشـد لأن الحق لا يغـاير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الـكنيسة الكاثوليكية كمـا إنهـم لا يسلمون لأخصامهم القـائلين بالمذهب الداروينى المحض ، وهـذا بعض الواجب عليهم بالنظر إلى ما يناقض حقائق الوحى المقـدس ، غـير إنهـم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشـوء كانوا من هـذا القبيـل لينى الجانب لطفاء هينـين •• فمن هؤلاء العلمـاء الاهوناء المتئدين الأب واسمان الجرمنى الشهير بعلم طبـائع الحشرات الميـال إلى الاعتقاد بنظـرية نشـوء الأنواع المعتدلة ، القـائل بأن أنواعا كثـيرة من النبات والحيـوان نشأت من أنواع طبيعيـة أصيلة أبدعهـا رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب الأليفـة والبرية والحمار والفرس والـكلب والثعلب الخ •• فإنك بهـذا ترى أن مبـدأ الخلق والإبداع لبث غـير ممسوس البتـة ، فاذا حل تصـور اشتقاق الأنواع الجـديد بالتحدر والتسلسل محل التصور القـديم لثبات الأنواع على عـدم التغير كانت حكمة البارى فى الجديد أمجـد منهـا بالقـديم ، من وجه أنه عز نوانه وجل جلاله وضـع فى الطبيعة الآليـة قوى تؤهلها لتحذير ونشر صـور جديدة لموجودات حية بدون افتقار إلى توسط أو تدخل قـدرة اللـه المبتدعة للـكون ونواحيـه والمعتنية بحفظها وإدارتها • وحينما تتصادم نظرية ما مـع التعليم المسيحى تصادما واضحا غير

قابل للشك •• يجب وقتئذ رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به الخلقة قطعا بدون رجعة ، يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل نظرية تنكر خلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قول معقول لهذا هو مقبول •• لأنه ليس فى الكتاب الكريم ما ينافيه أو ينقضه • أما بالنظر إلى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الجسد •• فقد ارتأى بعضهم أن المقصود بقوله جبله من تراب الأرض إنه قضى ورسم الصورة وهيأ الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والابريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكى والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفترق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان »

* * *

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الانسان عن غيره من الحيوان ، وهى تتلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى المتحجرات •• »

ثم سأل الأسقف : « إذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ » فكان جوابه : « إننا نجيب مع العلماء النزيهين المجردين من الأغراض والأهواء بالنفى ، وإنه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « إن النشوء بجميع مذاهبه لا ينفى مقاصد وغايات البارىء عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوئى الكبير والمادى المعروف بين الناس النبهاء سلَّم بكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملهما معا لاتمام مقصد جيد أو اكمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان والحيوان لهو

دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله .. فالذى يصنع آلة تعمل هى آلة مثلها ، لهو أحذق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تتعداه .. »

* * *

وفى سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حليم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسيوط كتاب « تصدع مذهب دارون والإثبات العلمى لعقيدة الخلق » نبه فيه إلى خطأ يسبق إلى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فإن من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « إننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية .. إننا نعلم فقط أنها غير قابلة للتحول وإننا على يقين بأن دارون ولامارك لم يكتشفا الناموس الحقيقى لطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الأنواع « أن جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية إلى نوع آخر وكل التغييرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية — مرضية — تقود إلى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الإيطالى روزا أن الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الإنسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون .. » .

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب « فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصلية ، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات

والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها فى العصور الجيولوجية .. » .

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلمية : « أن هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهى معرفة كيف استطاع المخلوق الذى يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التى تحيط به ... فإن أصحاب نظرية النشوء يقولون أن هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الإنسان الحالى .. فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والدب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ .. » .

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع — كما شرحها الدكتور سوريال — هى مشكلة المشاكل فى تمحيص هذا المذهب إلى اليوم ، وأنها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب .

* * *

ونحن نكتفى بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجال الدين فى مناقشة مذهب النشوء ، وهى :

١ — منحى الجزم بالرفض ببطلان المذهب فى جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة .

٢ — منحى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والإيمان بأنه — إذا ثبت — لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، فى الخالق ..

٣ — منحى القول بأن الأدلة العلمية التى يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيــه أرجح من الأدلة العلمية التى يوردونها على تأييده ..

* * *

أما أنصــار مذهب النشوء فى الشرق العربى فقــد كان أشهرهم وأفصحهم بيانا الدكتور شبلى شميل ، وقــد كاد أن يســبق دارون وأصــحابه إلى الأخذ بالنظريات النشوئية على علاتهــا ، وقــد ســبق المــاديين الغربيين إلى نفى كل صــفة روحيــة ، أو غيبية فى الإنسان ، إذ قال فى مقــدمة ترجمته لشرح بخنر على مذهب دارون « إن الإنسان على رأى هــذا المذهب طبيعى هو وكل ما فيــه مكتسب من الطبيعــة . وهــذه الحقيقة لم يبق ســبيل للريب فيهــا اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القــديمة راســخا فى ذهنــه رســوخ النقش فى الحجر .. فالإنسان يتصــل اتصــالا شــديدا بعالم الحس والشهاده ، وليس فى تركيبــه شىء من المواد والقوى يدل على اتصــاله بعالم الروح والغيب ، فإن جميع العناصر المؤلف منهــا موجودة فى الطبيعــة وجميع القوى التى فيــه تعمل على حكم قوى الطبيعــة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا ، وكالجماد كيماويا ، والفرق بينه وبينهــا فقط بالكميــة لا الكيفيــة والصــورة لا المــاهية والعــرض لا الجوهر .. فالإنســان يحس ، والحيــوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك ، ونواميس التغــذية واحدة فيهما .. غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيون لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شــبلى شــميل على مناقشته تكرارا لردود دارون ويخنر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ — إن التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النــوع الواحد إلا بالوراثة ، وهــذه أثر ثابت لا يحكم عليــه بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبتت بعــد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ — وإن إنصــاف الأنواع ليس من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم فى إنصاف

الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب ـ الأركوبتركوس ـ الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضهما عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات » ..

٣ ـ إن العلماء يخطئون فى وضع حدود الأنواع . وقد ذكر دارون « إن النباتى الإنجليزى وستن يذكر ١٨٢ نباتا إنجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : إن النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود .. »

٤ ـ إن التحولات لا ينبغى أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة . لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى ـ عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين ـ أن الدكتور شبلى شميل إنما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين . فانساق من هذه الخصومة إلى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا إنما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المرءوس إلى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الإنسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد لبعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين » .

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعللوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم .. ألقت إليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فإنه ـ وإن حصل ذلك ـ إلا أنكم لن

تبلغوا أمانيكم لتوفر معدات التقدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة » .

* * *

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها مذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هذا المذهب ، وأن الكتب التى اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا فى هذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحداثها .. فإذا أردنا أن نعود إليها لنحكم عليها حكم الزمن الممحص للآراء ، فالذى نراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشوئيين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال أنه يدفع الشبهات عن العقيدة الإلهية فى كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام .

* * *

ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا — دينيا وعلميا — فى انكارهم باسم الدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن إثباتها بما يقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقلة المعلومات الصحيحة التى وصلت إليهم عن مذهب دارون ومذاهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم إلى درء الخطر عن العقائد الإلهية يوم تعجل ثراثرة التقليد ، فهجموا على المذهب على غير

علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثرثرة بأحاديث الإلحـاد والمروق •• فكان تعجلهم هـذا داعيا إلى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين •

بيد أنه ــ ولا ريب ــ تعجل وخيم العاقبة ، قـد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعـد مرة منذ ابتـدأ العلم الحديث فى نشر كشـوفه المتوالية ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقـد علم رجال الدين فى الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، وإيجابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض •• كأن وجرد الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون ••

لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثـل هذه الغلطة فى التصدى للمذاهب العلميـة التى لم ينقطع الشـك فى ثبوتهـا أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكريهـا أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم على السـواء •• فان زلزال المـادية الذى اضـطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هـذه الحجة على الدين ، كما تصوّره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين ••



ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخـر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضـايا العـلم وقضايا الحقوق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين التشريع •• فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها ــ إذا لم تثبت ــ اضرار بمصـالح الآخرين • ولكن الدعـوى العلميـة ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين ••

وقد أفرط النقـاد جـدا فى التشبث بمسـألة الأنواع الوسـطى ، ولم يصطنعوا الاناة ليدركوا ما فى هـذه الحجة من الضـعف والعنت ويعلموا ان التشبث بها إلى هذا الحد إحراج للخصم من قبيل إحراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين •

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى لها ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبـل استكمال خصـائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليهـا ما ينبغى أن يترتب عليهـا من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الخيل والحمير أو بين الذئاب والكلاب ؟ •• وإذا كان القائل بالنشوء يعجز عن إقامة الدليـل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هـذا العجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟ •• إن كثيرا من الأحياء الباقيـة إلى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفـائر المطمورة بين طبقات الأرض ، فاذا جاز هـذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شـك فى بقـائها إلى اليـوم فكيف نستكثره على انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث ؟

فليس من الرأى السـليم — دينا ولا علما — أن يرتبط رفض النشـوء بعجز النشوئيين عن ابقـاء أنواع وسـطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتهـا للبقاء والتوريث • وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقـاربة ، فتعـود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعـلم لا داعية له غير التعجل والعنت فى الخصومة الفكرية ، وإنه لعنت معيب يجـوز فى خصومات المـال ولكنه يحرم أشد الحرمان فى خصومات الأفكار والآراء ••

* * *

وفى كتاب تدور موضـوعاته على حـكم القرآن الكريم فى شأن الإنسان يعنينا هنـا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق ؟ ••

وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الإســلام مما يوجب القول بتحــريم هــذا المذهب .. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن ســبيل العلم فى أية وجهة من هــذه الوجهات ، كمــا سنبينه فى موضعه من الفصــل الأخير .

الدين ومذهب دارون

نعود فنقرر فى هـذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول إن مذهب التطور أيا كان تفسير القـائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليـه الملحدون لأبطال الدين أو أنكار الخالق أو القـول بخلو الكون من دلائل القصـد والتدبير •

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى والانتخـاب الجنسى إلى عالمين كبيرين من علمـاء القرن التاسع عشر : هما شـارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله •

فأولهما ــ شارلز دارون ــ كان يقول إنه يستريح إلى الإيمان بوجـود الإله فى هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شـعوره هـذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين •

كتب فى سنة (١٨٩٧) إلى الأستاذ فرديس صاحب كتاب « صـور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « إننى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معنى الملحد إنكار وجود الله • وأرى على العموم ــ وبخاصة مع تقدم السن ــ إننى أحرى أن أسمى (لا أدريا) وإن هذا الاسم أقرب إلى الصواب فى وصف تفكيرى •• »

وقال فى خطاب كتبـه إلى طالب هولنـدى (فى الثالث من أبريل سـنة ١٨٧٣) :

« ••• يبدو لى أن استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، إنما كان وليد المصادفة ــ هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قـوة اقناعه كمـا لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التى تنجم ممـا يتخلل هذا العالم من الآلام » ••

وكتب إليه طالب ألمـانى فى سنة ١٨٧٩ يسأله عن عقيدته الدينيـة ، وعن العقيدة التى يدعو إليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلا :

« إن مستر دارون يعتذر لكثره الرسـائل التى ترد إليـه ولا يتيسر له الرد عليها جميعها ، ويود أن يقول إن مذهب التطور يوافق كل الموافقة إيمان المؤمن بالله .. غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا فى تعريفهم لمـا يعنونه بالإله » .

ويفهم من خلاصة رأيه فى سيرته التى كتبها بقلمه ، إنه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية مى حيث نسبتها إلى الوحى الإلهى ، وإنه لم يقم لديه الدليـل على حدوث هـذا الوحى فى التاريخ ، ولكنه إذا أراد أن ينظر إلى المسألة الإلهية من جانب الانتخاب الطبيعى فان أنواع الأحياء كانت خليقة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحيـاة أكبر من حسناتها ، وهى الحجة التى يستند إليها الملحدون فى انكارهم للمقاصد الإلهيـة .

وكان دارون على تردده فى مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شـعور المتدينين ولا يرتضى من العلمـاء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا إليه من عقـائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدى إليه كتابه عن رأس المـال كتب إليه متعذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز فى موسكو : « إننى أشكر لك رسالتك الودية ... وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى إلى مع شكرى لهذه التحية ، إذ كان اهداؤه إلى يتضمن على وجه من الوجوه اقرارى لمـا فى سـائر الكتاب الذى لا علم لى به . وإننى — مع غيرتى على الدعوة إلى حرية الفكر فى جميـع المسـائل — أرى ، صـوابا أو خطأ ، إن المناقشات المبـاشرة التى تنـاقض المسيحية والإيمان بوجود الله قلما يكون لهـا أثر على جمهرة الناس ، وإن خير وسيلة لتحقيق الحـرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعـا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة فى أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية » .

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفى وجــود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجــوده ، وإن الإيمان بأية ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل فى قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول .

أما « الفريد رسل ولاس » شريك دارون فى القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى وعوامل البنيــة الطبيعية ، فقــد كان مؤمنا قــوى الإيمان بوجود الإله .. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعــة سببا لتصديقه بالمعجــزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل فى الطبيعة أنهــا لا تجرى على هــذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقى ، وإنها كان يجوز أن تجرى على مجراها هــذا أو على مجرى آخر يساويه ويماثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وإنما هى الإراده الإلهية التى أوجبت هــذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التى يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطردة فى ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى الإرادة الإلهيــة على اطراد أو على استثناء .

* * *

ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالمــا من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود يراه فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهــج الذى ينهجــه فى تفكــيره وأساليب استدلاله .

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيــدته الروحيــة أو الفكرية ، وأشهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسى و « هويتهد » الانجليزى ، وهو عدا اشــتغاله العميق بالبحــوث الرياضــية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالأستاذ « جلادستون » الذى يقول : « كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغاية ، تبدوان من خلال النظر إلى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهى أو فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التى اختارتها العناية الإلهية لتدبير مقاصدها منذ القدم ، فنرى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة » .

* * *

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم فى الانكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وإنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين .

وأشهر القائلين بهذا الرأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الألمانى و « توماس هكسلى » الإنجليزى ، وهو أقرب إلى الاعتدال فى الانكار من زميله ..

فهيكل يقول : « إن العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية ، وهى — على خلاف سنن العقل — تذهب إلى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية — أو غير طبيعية — وإن ذلك الوحى المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل إليها العلم الحديث » ..

وهكسلى يقول : « إننا — أمام الأمور التى لا شك فى بعدها عن الاحتمال لا نقول إننا محقون فى طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع المعجزة الخارقة

بل نقول إن الواجب الأدبى يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبـــل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا إذا كنا ـــ بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المقنع ـــ لا نرى أمامنا إلا حكايات نجهل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصـــديق أن الشياطين تتلبس بأجســـام الخنازير ، فإننى أصرح بأن شـــعورى إنما هو شـــعور الدهشـــة من أن أرى الإنسان العاقل ينظر إلى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... » .

* * *

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالته من الوجهـــة الدينية ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب فى ذاته .. وإنما يرجع إلى طريقـــة النظر إليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العـــالم أو الفيلسوف ، فربمـــا خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنيـــة عن البحث فى إثبات وجود الله ، وقد ســـأل نابليون بونابرت أكبر علمـــاء الفلك فى زمانه ـــ لابلاس ـــ عن مكان العنـــاية الإلهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه أنه لا يرى لهـــا مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفســـيرا يغنى عن النظر إلى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقـــل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وإنه لا بد ـــ إذن ـــ من البحث عن الإرادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكـــير يتعلق بالنظرة إلى النظـــام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعنـــاية الإلهية فطريقتـــه فى التفكير أن يستدل بانتظـــام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعـــد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الإيمان بالقدرة الإلهية والحكمة التى تستدعيها ، إذا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيده الدينية ، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لإثبات عقائد الدين .

* * *

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شىء ، وإن هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ، ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث .

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطــور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق .. ولكنه لا يبتدىء معــه من البداية ولا ينتهى إلى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجــود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدىء من المــادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا تحتجب عنه سر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقع له فى إرادة ..

وهذه السلسلة العظمى كاملة فى انتظامها لكل حلقة من حلقــات الوجود ، وكل قابلية من قابليات الصــفات والاعراض ، فلا تفرغ السلسلة العظمى من إحدى هذه الحلقات ، ولا يُعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشىء قط ولا توجد فى الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ..

* * *

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الإلهى ، فهو الذى وضح هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية ؛ وهى أن الإله ــ وهو خير محض ــ يأبى له كرمه أن يضن على شىء ما كائنــا ما كان ، بنعمة الوجود .. فمهما يبلغ من حقــارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصــعد من هذه المرتبة إلى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشــياء من شوق إلى الكمال .

والراجح أن هــذا المذهب وصــل من الهند إلى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقليه من كبــار

الفلاسفة اثنان همـا : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلاهمـا يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفـوز فى مبارياتهـا العـامة ..

وقد كان فيثاغوراس يجتنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية إلى صـالحة لروح وغير صالحة لهـا لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكل السباع ويحرم أكل الفـول وما إليه لأنه مأكل البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجسـاد لترتفـع أو تهبـط فى درجات الخلق ومراتب البهيميـة والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهنـد فى الدورات الأبدية التى يحسبونها بعدد مقـدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين إلى شمسية وكونيـة .

* * *

وجاء بعده امبدوقليس . فقسَّم درجات المـادة واعتبر العناصر الأربعه أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النـار وعنصر الهواء وعنصر المـاء وعنصر التراب .

والعالم عند أصحاب القول بالسلسة العظمى ، عالمـان : كبير وصغير ، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم Microcosm الصغير هو الإنسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع إلى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التى تمت للإله على أكملها وأرفعهـا ، كما يتقبل الهبوط إلى مرتبة البهيمية وما دونهـا ، وفى الإنسان شىء من خصائص الأجسام المـادية ، وشىء من خصائص الأجسـام النباتية ، وشىء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشىء من خصائص الروح الذى يكون للمـلائكة بغـير جسد ، وشىء من المعـرفة التى يقترب بهـا من الصفات الإلهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان إلى العرب ، وانتقل من العرب إلى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩ م) وهو سلفستر الثانى ، وظهرت آثارهما فى أقوال القديس توما الاكوينى والبرت الكبير » ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الاسبانى أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيى الدين بن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين — جوهان اكهارت الألمانى — نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم (١) » .

* * *

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبسين من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربى ، إن الله هو الوجود الحق وإن كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول فى جملته يعيد إلى الذهن قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتغوراس Protogoras الذى كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوجود ، وإن الله أنعم على الإنسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدى الذى اختصَّ به الإله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض فى النهاية ، لأن افلاطون يعود فيجعل العقل — صفة الله العليا — درجة يبلغها الإنسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التى تمتزج بالعقل فى تكوين الإنسان ..

* * *

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى إلى مذاهبهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للمؤلف .

والحيوان ، فجعلهما مشتركين فى « النفس » النامية . وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان . ولم يكن فى تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان .

وتقبَّل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت إليهم من مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الإنسان بالإيمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التى يتحلى بها الإنسان ويعلو بها من أفق الخلائق الدنيا إلى أفق النعمة الإلهية وإن الإنسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤتمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهاق المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل إلى الإيمان بالله والتعويل على البركة الإلهية فى تطلعه إلى النجاة والخلاص .

* * *

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب إلا بعد ظهور فلسفة ابيلارد (١٠٧٩ — ١١٤٢ م) الذى فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شىء غير ما هو موجود ، لأن الخالق فى علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعمله وإرادته، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو (١٠٩١ — ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال إنه يناقض ما ينبغى أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن انعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان القديس توما الاكوينى (١٢٢٦ — ١٢٧٤) يميل إلى تأييد برنارد فى اعتراضه على تفسير إبيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالى على ابن رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول : إن خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التى أودعها فيها لا ينفى قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولا ينفى قدرته على خلقها مرة أخرى فى صورة غير

هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل فى الممكنات غير مستحيل • وجاء بيكوديلا ميرندولا (١٤٦٣ — ١٤٩٤) Pieo della Mirandola فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الإنسان لأرفع المراتب وأدناها • وإن كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه إلى ما فوقه ، إلا الإنسان •• فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذى يرتضيه لنفسه ، علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا إلى مرتبة البهائم والحشرات •

* * *

وعاد البحث فى مكان الإنسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة ، وعن مكان الإنسان على هذا المركز المختار •• فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تزعزع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسا عليه ، ظلت فكرة السلسلة العظمى غالبة على الباحثين فى مركز الإنسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين إلى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزى اسكندربوب (١٦٨٨ — ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الإنسان ، وقال فيها يخاطب الإنسان :

« اعرف إذن نفسك ، ولا تدع الإحاطة بعلم الله

« إن دراسة الإنسان المثلى هى الإنسان

« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقا عاقلا فى ظلمة ، عظيما فى خشونة

« أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدرى

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر

« معلقا بين العمل والراحة

« معلقا بين الإلهية والبهيمية

« معلقا يتردد بين إيثـــار عقله أو بدنه

« يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطىء

« يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

« ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة

« وهو هو الذى يسىء إلى نفسه أو يتجنب الإساءة

« مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

« سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

« وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب فى خطأ دائم

« ولا يزال فخر الخليقة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن »

وهذا هـــو مكان الإنسان الأوسط ، بين حلقات هـــذه السلسلة العظمى « التى إذا انكسرت إحداها وقع الخلل فى سائرها »

وجاء بعده شـــاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصـــول (١٧٠٠ — ١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

* * *

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنـــه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث يعرض لمســـألة الإنســـان ومركزه من الكون فى زمن من الأزمان ، وإنما انقطع البحث فترة يســـيرة ، ليتجدد بكل ما يستطاع من قوة مع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الأحياء عامة وعلم الإنسان خاصة على هـــذا النطاق الواســـع الذى يشمل اليوم علم الحياة أو « البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية « الاثنولوجى » وعلم الإنسان

« الانثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل بالمعلومات العامة عن الإنسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة وآراء الفلاسفة والمفكرين .

* * *

ونعود إلى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوربيين . فنقول أنهم عرفوها — كما تقدم — من مصادر شتى ولم يجعلوها دستورا عاما يحيط بالموجودات ويقرر للإنسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الإنسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم أغناهم عن القول بمكان له ينسبه إلى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على طريقة الأقدمين فى إلحاقه بغير الخلائق الآدمية ..

وإنما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير إلى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من بحوث العلم أو الدين ..

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب التطور » من هذا الكتاب .

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والتفرقة بين مراتبها ، ابتداء من النفس التى كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة فى الخلائق النامية ، إلى الروح التى تعلو على النفس فى هذا الاعتبار ويمتاز بها الإنسان عما دونه ، إلى العقل وهو الصفة الإلهية التى يتحلى بها الإنسان ويقترب بها من أفق الخالق أو المحرك الذى تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها إليه ، وأشرفها حركة الإنسان إلى المعرفة وشوقه إلى الكمال .

* * *

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء فى أبيات تنسب إلى الإمام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها إليه ، ومنها عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تشعر
وداؤك منك وما تفكر
وتزعم انك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

ووافق القول بنجاة الإنسان بعقله ما ورد فى آيات القرآن الكريم من الأمر بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الإسلام ثم فرق المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتقدم فى فصل آخر : « إن هذا الشوق ربما ساق الإنسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى إلى غاية كماله وهى سعادته التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها .. ولا حاجة بك إلى علمها الآن وأنت فى تهذيب خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت إلى ما ليس بتمام للجسم الطبيعى لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق إلى أكل الطين وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده — كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها إلى الأشياء التى تعوقها وتعقد بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج إلى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى إلى طب طبيعى جسمانى ، ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين وإلى المؤدبين والمسددين .. فإن وجود تلك الطبائع الفائقة التى تنساق بذاتها من غير توقف إلى السعادة عسرة الوجود لا توجد إلا فى الأزمنة الطوال والمدد البعيدة . وهذا الأدب الحق الذى يؤدينا إلى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية ، حتى إذا لحظت الغاية تدرج منها إلى الأمور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدىء من أسفل على طريق التركيب ... وينبغى أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فضيلة ما ، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها أحرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتهى إلى غايات الأمور وإلى غاية غاياتها ، أعنى السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها » .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها إلى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون

بالمعرفة اللدنيـة ما يدركه الإنسـان بالإلهـام والاستشراق ويهتـدى إليـه برياضـة النفس وقمع الجسـد : وهى معرفة غير معرفة التعليم والدراسـة ، على حـد قول سـعيد بن أبى الخير فيما روى من كلامه عن ابن سـينا « أن ما يرى على ضـوء المصباح وصـل إليـه هـذا الأعمى بعكازه » •

ويتممه قول ابن سـينا عن الحدس الصـادق أنه حالة يقابل بهـا عقل الإنسـان مصـدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهـام والتوفيق ما ليس يدرك ابتـداء بالدرس والبرهان •

* * *

وفى غير هـذا الفصل بيان لمذهب حجة الإسلام الإمام الغزالى فى حكمة الموجودات وحكمـة خلق الإنسـان بين خلائق السماوات والأرضـين ، وهو أمثـل ما يقـال عن سـلسلة الخلق العظمى بتفسـير أهل السنة ، على هـدى القرآن الكريم ••

الإنسان في علم الحيوان
وفي علوم الأجناس البشرية

الإنســـان من الفقـــاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين الفقاريات ..

وهـــذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthropoids وتشمل الإنسان والقـــردة العليـــا ، وهى الغوريلا ، والأورانج ، والشمبانزى ، والجيبون .

ويختص الإنســـان من بين البشريات باســـم يميزه وهو اســـم الأنس فيفرقها هـــذان الاسمان حيث يجمعها اسم البشريات .

Hominidae كما يختص القردة على عمومها باسم النسانيس Simidae

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأنس يطلق على الكائن الذى وجدت بقيـــة من جمجمته فى حفـــائر جاوة وأطلق عليـــه الدكتـــور دبوا Dubois الذى وجد تلك البقية Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشريات ، ولـــكن الرأى الغـــالب اليوم أن النوع الإنســـانى بمزاياه التى بقيت له إلى اليوم مخالف فى الخصـــائص الانســـية لصـــاحب تلك الجمجمة ، وأن هنـــاك اختلافا غير قليل بين أناسى الحفائر من قبيلة وبين الإنســـان الذى يطلق عليـــه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Home Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين « هومو » بمعنى بشر ـــ و « سابيين » بمعنى ذى فهم أو ذى ادراك أو ذى كياسة .

* * *

وننقل هنـــا خصائص النوع الإنســـانى فى علم الحيوان ، كمـــا أثبتهـــا أقـــدم الكتب العلميـــة التى بحثت مذهب التطور باللغـــة العربيـــة ، وعنيت بايراد أوجـــه الاعتراض عليـــه وأوجـــه الاختلاف بين الإنســـان وغيره من

البشريات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ونعنى به كتاب « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان » لمؤلفه الدكتور بشاره زلزل — وقد صدر الإذن بطبعه من نظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الإسكندرية .

قال المؤلف فى الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول : « فإذا نظر إلى الإنسان على سبيل المقابلة بتلك القرود التى هى لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان ماش منتصب انقامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شىء من ذلك . وعلة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى إلى كبر القحف . فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا أن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين . وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال والسناسن (النتوءات الشوكية) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الإنسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنيقة إلا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام . ولذلك كانت هذه الأربطة فى الإنسان ضعيفة . قال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون ، أن السبب فى انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها إلى الأفق . وطفل الإنسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى إلا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره . وفى السنة الثانية غالبا

يتكون القوس الظهرى من جراء فعـل العضـلات الظهرية والصـلبية للقطر السـفلى للعمود الفقرى ، وذلك إذ يبتدىء الطفل أن يدرج •

« وبالجملة فإن الخاصة التى يصـدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليهـا امتيازه على سـائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية انما هى نمو الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقـد أجمـع الباحثون على أن معـدل وزن الدماغ فى الأوربيين يكون متوسـطة فى الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفى النسـاء ١٢٠٠ غراما ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما •• وما نقص عن ذلك يدل على البلاهة لعلة أو آفة •

« والقـرود الشبيهة بالإنسـان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعـدل وزنه المتوسـط فيهـا ٣٦٠ غراما ، وغاية ما بلغه فى الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقـد عد ذلك من الشواذ •• وعلى قـدر نمو الدماغ تزداد سـعة القحف ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الإنسـان والحيوانات من هـذا القبيل أوضـح من أن يبين ، فإذا نظـرت إلى جمجمـة إنسـان من الأعلى لا ترى البروز الوجهى بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيـوانات • وإذا نظرت إلى جمجمة القـرد من جانب ، ترى الوجـه شاخصا إلى الأمام يؤلف خطـا مستطيلا ، وذلك من الخصـائص البهيمية • ويسـتدل على معرفة درجة هـذا البروز بالزاوية الوجهيـة • وفضـلا عن ذلك فإن الجزء الوجهى للعظم الوجنى قليل النتوء فى الإنسـان بخـلاف ما هـو عليـه فى القـرود ، وإذا نظـرت إلى الجمجمـة من الوراء لا ترى الثقب المؤخرى فى جمجمة الإنسـان وتراه كله أو قسما منـه فى جمجمة القرود • وهـذه الأعراف الدالة على الشراسـة والصـفات البهيمية فى القرود غير موجودة فى الإنسـان ، وهى لازمة فيهـا عن نمو العضـلات المضغية التى يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضـلات القـذال التى يتوقف عليهـا اسناد الرأس على العنق ، ومعلوم أن قحف الحيـوان الصـغير لا يتسع لاندغام هـذه العضـلات فيه ، فحيث وجـدت اضـطرت النسـيج العظمى فى ابان نموه أن يهيىء لهـا مندغما ، فنشأ عرفا • والدليل على ذلك أن هـذه الأعراف لا توجد فى القرود الصغيرة •

ومثل ذلك يقال عن النتوءات الشوكية البارزة فى عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتوءات أصغر فى الأوران مما هى فى سائر القرود لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الخطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالأكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء . أما الجيبون فخطمه صغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرود إلى الإنسان ولكن طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكأ عليهما فى مشية كما يتوكأ الإنسان على هراوته ..

* * *

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرود ابهام الرجل ، فهو فى القرود أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك فى الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشى وانتصاب القامة كما أنه يناسب فى القرد حالة التسلق والإمساك .

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها .. فأسنان الإنسان بالنسبة إلى جسده أصغر مما هى فى القرود ، وإذا تأملت فى الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه . أما النواجذ والطواحن فى هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة إلى طول القسم الوجهى من الجمجمة .. وما عدا ذلك فإن وضع الأسنان فى سنخ الإنسان على نسق منتظم خلافا لما يرى فى القرود حيث يتخلل نابى الفك العلوى وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ... والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية والعمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدى إلى تنويعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى فى أقواس العمود الفقرى ، فإنها فى المتمدنين أكثر وضوحا مما هى فى المتوحشين » .

وترجع علوم الإنسان إلى علم الحيوان لدراسة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع إليه أحيانا فى دراسة تقدمهم الثقافى منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق Homo Sapiens وقبل

وجود هـذا الإنسـان فى العصـور السحيقة التى استخدمت فيها الآلات على شيء من الخشونة البدائيـة • ويشيع — من أجل هـذا — أن هـذه العلوم قـد تأثرت بمذهب التطور كمـا بسطه لامارك ، وكمـا بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصـح أن المعلومات المتشعبة التى تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العـالم القـديم والعـالم الحـديث •• قـد كان لهـا أثرها البين فى مذهب التطور وفى سـائر العلوم الإنسـانية المتعددة . ومنهـا علم السـلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغـات •

* * *

ومحصـل هـذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الإنسانيـة أن البشر وجـدوا وانتشروا على جهـات متقاربة من العـالم القـديم منـذ العصر « الميوسينى » Miocene قبل نحو مليونى سـنة . وأنهم كانوا يومئذ على حالة متوسـطة بين الحيوان النـاطق وطبقة بشرية دون هـذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الإنسـان بعـد ابتداء العصر الجليدى منذ نحو مليون سنة ، ولكن الإنسـان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلىّ قبل مده تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة • وكانت بداية انتشـار الجماعات الإنسـانية بين القـارات الثلاث منذ العصر الحجرى الأول ، ثم تلاه العصر الحجرى الحديث الذى تميّز فيـه الإنسـان بأكبر مزاياه ، وهى الحيـاة الاجتماعيـة والقـدرة على اسـتخدام الآلات والنار وتسـخير سـائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد على مراحل متتابعـة ، أولهـا مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصـيد ، وتأتى بعـدها مرحلة تدجين المـاشية والحمار والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان إلى مكان حيث يوجد الكلأ والمـاء •

وفى هـذه المراحل ملك الإنسان زمام الخليقة ، وبلغ المنزلة التى استحق بهـا أن يسمى نفسـه سـيد المخلوقات ، وتمهـد له سـبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعـة حينما احتاج إليهـا ، ويعتقد بعض علماء

السلالات البشرية أن الإنسان تقدم شأوه الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة . ثم تقدم شأوه الثانى — والأهم — فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ؛ واتسع الفارق بين ملكاته فى شأوه الأول وملكاته فى شأوه الثانى بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة .

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لا تختلف فى الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث ..

* * *

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقاليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ بالمسكن أو على الهجرة منه إلى غيره . ويعزى إلى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة .. وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، أوضحها أسماء ألوان البشرة ؛ وهى البيضاء ، والسمراء ، والصفراء، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة إلى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تئول إلى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية .

وأبرز الفوارق بين السلالات — غير لون البشرة — شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السلالات التى انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره .. فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لما بينهم من التشابه فى استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب إلى السواد . وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والاقاليم ، فنسب الأنف الأفطس والجلد الأسود إلى فعل الحرارة ، كما نسب الأنف

الأقنى الطويل والجلد الأبيض إلى برد الإقليم واحتيـاج سكانه إلى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلطف وقـع الأشعة على البشرة .
وبمثل هذا السبب يعللون اختـلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشـعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس ، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة — أو مجموعة من العلل — ترجع إلى المنـاخ وأحوال المعيشـة .

إلا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلا بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغـة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى إلى التقسيم بالضوابط والعـلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشـعور والاعتقاد .

واللغات — فى تصنيف بعض علمائها — قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها . ولكنه تقسـيم يقع فى الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها إلى أصول متباعدة فى أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسـم اللغات على حسب تكوينهـا وتكوين الكلمات وقواعد النحو فى مفرداتها وتراكيبها . وهو تقسيم يضبـط الفوارق بينها ضبطا كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعـوامل الجمود والتأخر فى تراكيبها وتعبيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصـفات بإدخال المقاطع الصـغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغـات التجميع ، ولغات الاشتقاق .. فلغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصـفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقهـا بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين : Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنغيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تدخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف من عدة مقـاطع

مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغــات التى تتكون هــذا التكوين أن تســمى بالمجمعة Polysynthetie مع وصــفها بالغروية إلى جانب التجميع •

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجرى قواعد العرف فيهــا على المخالفــة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ••

* * *

ويشيع النحت فى اللغــات الهندية الجرمانية . كمــا يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبــائل الأمريكية الأصــيلة •• الاشتقاق فهــو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغــة العربية أن تنفرد من بينهــا بعمــوم الاشتقاق واطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيــدة ••

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة . عملت فى تطور هــذه اللغــات جميعا ولا تختص بها لغــة منها دون سائرها • ومن هــذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليــدية أســبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصــدر عن الإنسان عفوا من الأصــوات والصــيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة ، وما تكون الكلمة فيــه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبــل ، والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها •

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيــه على القياس والاســتعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظــا أو لفظا ومعنى ••

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم فى الثقــافة تلك اللغــات التى انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبــارات Syntax ويضاف إلى الظــواهر الصــوتية

والصرفية والعبارية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات إجمالا وفى المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهى جميعها من المزايا التى لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا إذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها .

* * *

ففى صدد الكلام على التطور الإنسانى ، وعلى تطور الإنسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير إلى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الإنسانية الكبرى ، وهى خاصة النطق والتعبير .

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لاشك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجزاف فى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاه بين المدلولات .

وفى قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويبتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفيه .

ورأى بيرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية فى العالم المعمور تنتمى إلى أصل واحد وهو أصل الثقافة بوادى النيل ، ومنه انحدرت إلى القبائل القريبة ثم إلى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك فى أصوله ، وإنه يشمل الحوض الشرقى للبحـر الأبيض المتوسـط ووادى النهرين وأقاليم الشمال من الهنـد والصين •

والرأى الذى يأخذ بالمفهوم المنطقى ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقـدم الإنسان الناطق حيثما وُجد فى بقعـة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هـذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عنـد أصـحاب هـذا الرأى من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصـور التـاريخ ••

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافاته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمس جميعا وبين قبلة فى الغـد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال فى حضاراته الغـابرة أو حضاراته المعاصرة •

إن الأشواط الغابرة قد انقضت — كما تقدم — على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السـنين : مرحلة الصراع مع الطبيعـة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للغلبة على سيادة العالم المعمور •

ولا تزال المرحلتان ماضيتين فى عملهما السياسى والاجتماعى ، وفى عملهما الفكرى والأخلاقى ، فإن تسخير الذرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته إلى غايته حتى أواسـط القرن العشرين • وأن الصـواريخ الموجهة بين القارات إنما هى امتداد السلاح الحجرى قبل ألوف القـرون ، ويتساءل المستطلعون للغـد — من علماء الدراسات البشرية وغيرهم — هل من جـديد ؟ ••

فإن يكن شك فى الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل إلى الأعمال فى مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

* * *

بقى الصراع بين الأمم ، وتغيَّر منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتغليب إحداهما على العالم المعمور حول الأمتين ؛ فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو « ايديولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذى يطالع الإنسانية بإحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تئول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية إلى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهليتها المتروكة منذ دهور .

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر إلى الواقع المعلوم والغيب المجهول .

الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعى التى عبر عنها أرسطو بقوله : « إن الإنسان مدنى بالطبع » وجعلته نموذجا وحيدا فى الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعى ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع .

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الإنسان ..

واسم « الإنسان » وحده باللغة العربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا للألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما فى الكلمة من الجناس اللفظى فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فإنما
سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال غيره :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه
ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديما وحديثا تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذى يألف الإنسان فى مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش .

ويسرى هذا المعنى إلى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية فى الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطىء المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التى لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الإنسان ولا الحيوان فى عشرة طويلة .

إن الحضارة الأوربية — منـذ عهد الفلسفة الاغريقية — لم تهتـد إلى مذهب محيط « بالإنسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة •

أما الحضارة العربية فصفة الإنسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معنـاه أو غير معناه •• إن صفة الإنسان فى هـذه الحضارة العربية هى اسـمه الذى لا ينفك عنـه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصـل بين خصائص الأنس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح •

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الإنسـان الأخلاقى ، أو الإنسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات •

فالإنسان فى الحضارة الإنسانية هو ظاهر وباطن كالوجـود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السـلوك العملى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هـذه القـوانين بآداب اليامزا Miamsa ويظن أنها وفدت إلى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهرب من الحيـاة •

وباطن الإنسان يستقبل باطن الوجود ، ويسمونه فلسـفته بالسانيسـا Sannyasa أى فلسفة التجرد من المـادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولاده والموت بانكار الجسـد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وإن كانت نهاية المذهب إلى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلهـا تبعـا للرياضة الروحية ••

وحضارة الصين تميز الإنسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمى الذى يعنى أنه

مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق وإحساس Home Sapiens على حـد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن المعـرفة فى مذاهب الصين وهى « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين وإنما هى حالة كحالة الرشـد الذى يبلغه الشيخ المحنـك بالنسـبة لغرارة الطفولة : قوامها القـدرة على مقـابلة الحوادث والأشيـاء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسـباب قد تعرف عند الشرح والتفصـيل وتعرف لهـا براهينها وأسانيدها بالمعانى والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا فى الذهن بغير معـانى أو كلمات ، وشـعارها عند الحكمـاء « إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف » .

وهـذا « الإنسان » فى مذاهب الحضارات الكبرى مقبـول بتعريفاته وصفاته فى جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففى وسع العـالم الدينى أن يقول بصفة جامعة من هـذه الصفات دون أن يعرض لمناقشـتها ، أو يناقض اعتقاده الدينى بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفى وسـع العـالم المـادى أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتمس لها مرجعا وراء المـادة والطبيعة محالا إلى عالم الغيب أو ملموسا مدركا فى عالم الشـهادة ..

ففى وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الإنسـان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها .

وفى وسعه أن يعلل الأخلاق الإنسانية جميعا بغريزة حفـظ النوع على سعتها ، أو بالغريزة الجنسية فى نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين .

وفى وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باسـتيحاء الطبيعة وتصـوير الإنسـان كل ما يحسّه فى خلده بصور الأحلام ومخلوقات الخيال .

وإنما يبرز خلاف الرأى بين الدينيين والمـاديين حين يبحثون فى الملكات الفكرية التى تناط بها الأخلاق فى كل تعريف من هـذه التعريفات : هل تنـاط

بحيــاة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمــادة ، أو هى منوطة فيه بوظائف الحيــاة الجسدية التى لا فرق بينه وبين الحيوان فيهــا غير فرق الدرجــة و « الكيفيــة » ؟

مثال رأى المــادتين يقول به ريدلى Ridley صاحب كتاب الإنسان فى حكم العلم Man, The Verdict of Science ويستند فيه إلى آراء جماعة من علماء الكيميــاء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة سطور فيقول : « إن الإنســان — وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفســية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حى ســواه — لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى • ولم ير الإغريق الأقدمون داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرســطو فى نطاق برنامجــه الحيوى مع ســائر الحيــوان والنبــات ، وجاء لينوس (١٧٠٧ — ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعد فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف •• وبوفون الفرنسى معــاصر لينوس ، وضع الإنسان فى المملكة الحيــوانية واجترأ على أن يحتمل نســبته مع القرد إلى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف السلطة الدينيــة الفرنسية فخيروه بين النبذ وبين تعــديل رأيه ، وهو تخيير لم يتعــرض له لينوس فى البلاد السويدية • وقد وضع الإنســان وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذلك طبقــة الأوائل التى تشمل القرده والنسانيس • وهم يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى إليه بعض الأحيــاء ممن بقيت آثارهم فى حفــائر الطبقات الأرضية ، ولكن الإنســان الحــديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر النــاطق أو الحيوان العارف •

* * *

فالماديون من البيولوجيين والترولوجيين يرون أن الارتفاع بالإنسان إلى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف افهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائل

Primates وبين هـذه الأوائل وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة — مع هذا الفارق فى الدرجة — إلى فارق آخر من عالم وراء المـادة والطبيعة ، وهو فارق الروح •

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسـيم ، ولكنهم يقـولون إن الفارق لا يفهم إلا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء إنما ينتهى إلى التدرج بينها فى الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقى إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون أعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان •

وأشهر القائلين بهذا الرأى الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Telilhard de chardin البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحـد الذين أسهموا فى كشف إنسان بكين وألقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى، ومنها معهـد اليسوعيين العالمى بالقـاهرة ، وكتابه « ظـاهرة الإنسـان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواسط القرن العشرين بعض معـالم الطريق فى اتجـاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسـيمات علم الحيـاة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقّب عليهـا سـائلا : « إذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حـركة إلى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقـاربة للانسان أن يتمثل هـذا الاقتراب فى ابتـداء ظاهرة الأهبـة السيكولوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء • ومن ثم يلقى الضـوء على « المفـارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة إذا لاحظنا قلة الفارق التشريحى بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه العقلى فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله، ولكن أليس هـذا بعينه ما ينبغى أن ينتظر ؟ » •

ويجلو هذا الرأى بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متـدين ، هـو الأستاذ

روســل هاريــون الذى يقول فى كتــابه عن مصير الإنســان : « اننا لا نعرف الموســيقى إذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشــاب والمعــادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيــان • وبعض علمــاء الحيــاة يراقبون تغــذية الحيــوان ، ويلاحظون أن العــواطف تتأثر ببعض الأغــذية فتنقص أو تزيد •• لاحظوا أن الفــأرة التى يقــل المنجنيز فى غذائهــا تهمل صــغارها ولا تعطف عليهم ، وأنه لحسن منهم أن يلاحظوا هــذا ويصــلوا منه إلى زيادة حصــة الحيوان من ذلك الغــذاء ؛ ولكنهم إذا جاوزوا ذلك فقالوا أن عاطفــة الأمومة هى مقــدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هــذا الرأى كخطأ القائل أن نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار •• » •

ويتبدل منحى الاستدلال المنطقى والعلمى ، إذن ، بهــذا التفســير لمذهب النشوء القــائل بارتقاء الحيوان والتشــابه بين كل درجة من درجاته ومادونها وما فوقهــا فى الاستعداد لأهبــة العقــل والوجدان ، فلا بد أن يحــدث ذلك للوصــول إلى الجهــاز الحيوانى الصالح للنهوض بمطالب الروح والوجدان • وينقلب الأمــر على المــاديين فيصــبح المــادى وهــو المسئول أن يقــول للمعترضين عليــه من رجال الدين : لمــاذا يكون معيار التقــدم زيادة الوعى على درجات تناســب الترقى فى تركيب البنية العضــوية ؟ وكيف يتأتى هــذا لانتظــام فى الأداة وفى النتيجة إن لم يكن هنــالك طــريق مرســوم لغــاية مقدورة ؟ ••

ومن العلمــاء غير الدينيين من أقنعته هــذه الحجة بعض الاقناع ووافقته مذهبــه فى اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها فى اصــطلاحهم المتفق عليــه Religion without Rēvelation فقال علم أعلامهم وهو الســير جوليان هكسلى فى تقــديمه لكتــاب ظاهرة الإنســان : « اننــا معشر بنى آدم نحتــوى فى أنفســنا كل ما فى الأرض من الامكانات الهائلة ، وفى مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منهــا على شريطــة الازدياد من العلم والمحبــة » •

وتكاد هــذه الأســطر أن تكون نســخة ؛ معنوية ؛ من كلمات الختام التى

انتهى إليهـا السـير جوليان هكسلى فى كتـابه « قنانى جديدة لخمرة جديدة » إذ يقول :

« إن صـورة الإنسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى — من وجهـة المبدأ على الأقل — إن الدين والعـلم قـد يتفقان ، وقـد هـدتنى إلى مخارج من العطف والفكر يحق لنـا أن نطلق عليهـا اسـم الدين ، ولكنهـا كانت لولا ذلك خليقـة أن تكبت وتترك نسيا منسيا . . فهى بهـذه المثـابة تعلمنا كيف يسهم العـلم فى تقـدم الدين ، وقـد قرر جدى فى مقالة عن اللاأدريه كلاما فى هـذا الصـدد كأنه غنى بذاته عن البرهان فقـال : « إن كل إنسان ينبغى أن يعطى سـببا للإيمان الذى يؤمن به . . وأن عقيـدتى لهى الإيمان بالامكانات الإنسـانية وأرجو أن أكون قـد وفقت إلى شرح أسبابها » .

* * *

على أننا نجتزىء بأحدث الأقوال التى انتهى إليهـا غلاة المـاديين بيانا لمزية العقل فى الحيوان النـاطق ، فلا نحسـب أنهم قـد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقـل من مزية الروح فى ارتباطهـا بالحيـاة أو بالمؤثرات الحيـوية على وظائف البنيـة الإنسـانية على الخصـوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهـاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الإنسـان خاصـة أشـد من تعويل العلمـاء المتدينين على دلالة الارتقاء إلى الملكات الروحيـة بمقـدار الارتقاء فى التراكيب الجسـدية .

فالأسـتاذ بافلوف المشـهور بتجاربه الجسـدية النفسية يقول : « كلما أحكم كيـان الجهـاز العصبى فى بنيـة الحيوان كان أقرب إلى التركز ، وكان أقـدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليـا على التوزيع والتنظيم فى أعمـال البنية كلها » ..

وقـد أثبت زملاء بافلوف وتلاميـذه أن بقاء الحيـاة بعـد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعـد توقف النبض بنحو سـت دقائق ، وأن الوعى الإنسـانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة ..

جاء فى كتـاب مسالك العـلم الذى طبع فى موسـكو سـنة ١٩٥٦ :

« من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد • • وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الأكسجين ولا تتنفس ، وإذا حقنت به عروق قطة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة ••• وقد حقنت به اثنتا عشرة قطة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كأنما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن (١) •• » •

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الإنسان نشأت اضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا •• ففى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل إلى المخ فتبعث التنبيه إلى حواس النظر والسمع وسائر الحواس الحيوانية ، وهذه أيضا هى المنبهات التى تصل إلينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عدا المؤثرات التى ينفرد بها الإنسان وتؤدى له وظيفة التنبيه لذلك التنبيه » •

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية ، فهى تكاد أن تقرر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر — إن لم نقل التأثير المطلق — فى كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل والوجدان •

---

(١) Pathes of Science by L. Friedland

مستقبل الإنسان في علوم الأحياء

إن العلم الطبيعي حذر فى تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه إذا وصل إلى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم يرَ من أمانة العلم كتمانه واخفاءه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانه لنظريته فى تحول الأنواع .

وإذا وازنا بين حذر العلم فى الحكم على الماضى وحذره فى الحكم على المستقبل المحدود ، فهو فى الحكم على المستقبل أحذر وأقرب إلى التردد بل إلى التوقف عن مجرد الظن إلا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضى وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا . . فإن علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله إلى النقيض .

وعذرهم من هذا التهيب مفهوم ، وهو أدل شيء على أن دلائل التطور الماضى لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين ..

عذرهم أن العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضى ليس إلا ، ولكنه ينشئ الطريق ويمشى فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير إلى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لا يزيد عمله على رسم طريق .

إن كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل

التكوين الإنسـانى كما يتمثله علم الحيـاة فذلك هـو « البيولوجى » الكبير الأستاذ « مداوار » Madawar صاحب جائزة نوبل للعـلم الطبيعى « سـنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العـالية فى تهيئة جسم الإنسان لقبول الأجسـام الغربية التى تنفر منهـا خلاياه على الرغم من تقسـيم الآدميين إلى فصائل وعائلات فى تكوين الدم وأنسـجة الخـلايا ، فانه قـد تبين له من تجـارب يضيق بها الحصر أن الفـرد الإنسـانى وحـدة لا تتكرر فى مكونات بدنه ، وإن كل حـكم على بنيته من طريق التقسـيم إلى فصـائل وعائلات فهـو تقسيم قابل للخطأ عنـد إجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والأعضاء من بنية إلى بنيـة ..

وقد سئل هـذا العالم الكبير أن يلقى محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال إنه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلقى هـذه المحاضرات بعنـوان مستقبل الإنسان لولا أنه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى فى مسألة من مسـائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبـل أن يراجع فى موضوعه زملاءه الثقـات فى مسـائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقـد ذكرهم بأسمائهم فى تمهيده للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعـدد النماذج الفـردية قد يحول دون التوليد لإخـراج النسل على نمط مقـدور ، مضى يقول : « إن الأمر يدعو إلى التساؤل : هـل يتأتى للانسان أن يمضى متطورا غدا كمـا تطور بالأمس ، أو أن هناك أسبابا تدعو إلى الظن بأن هذا التطور قـد بلغ أقصى مداه ؟ ..

وطفق الأستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، سـوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال — مثلا — إن الاحصاءات فى بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعـد الحروب ، وإن بعضـهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمـل لتعويض النقص على عادتها فى كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ،

ولكنه قد يبطل اليقين به أن هذه الزيادة أيضا قد شوهدت فى أمم لم تفقد أبناءها فى الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة .

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال إنها طريقة لم تكن ميسره لوسائل قبل السنين الأخيرة.. ولكنها تيسرت الآن لانتظام الاحصاء فى شتى مظاهر الحياة ، ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الخصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الإنسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال إن العبارة « متحف من النقائض » فإننا إذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ إلى اليوم بأناس كانوا — لولا ذلك — قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات .. كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك إلا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذلك .

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغييرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغييرات التى تقع فعلا ، وإن اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى .. ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين Geneticists لاحتمالات التغييرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة

بين الصبغيات •• وهى عملية يمكن أن تتم إذا كانت كلتـا الصـبغتين مماثلة للأخرى تماثلا يميل بها إلى الامتزاج ، ثم إعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة • وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخليق بهـذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجـائى Mutation وما يترتب على إمكان إحداثه من تغيير النسـل بالانتخاب الصناعى • والمشـاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لهـا خاصية عجيبة وهى خاصة الاحتيـاط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربمـا وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليهـا نجاة فريق منهم من الأوبئة والعـلل المنتشرة : وكمون ضرب من المنـاعة يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل • وقد يدهش السامع — بعد كل ما عرف عن الوراثة — أن يعلم إنه لم توجد بعد فكرة وافيـة عن الأمور التى تفعـل والأمـور التى تجتنب لتحسين نتاج الحيوان بالانتخاب الصناعى ••

ويؤخذ من استطراد العـالم البيولوجى فى أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغييرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وأن الاستعانة بالمعـارف المستحدثة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين فى الذرية ووسـائل اتقـاء الانحطاط فيها ، ولكن هـذه الوسـائل لم تضبط — بعد — على يقين من نتائجها •

ولكن ترقية النسل لا تعتمـد كلها على ضبط هـذه الوسـائل الجينية ، لأن هنـاك وسـائل التفكير أو وسـائل الخصائص التى قد تنتقل بالوراثة من الدماغ ••

قال الأسـتاذ مداوار فى محاضرته الأخيرة : « إننى فى هـذه المحاضرة الأخيرة سأبحث فى الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة — غير الوسيلة الجينية — للوراثة والتطور مبنيـة على خصائص وحركات مصدرها الدماغ •

« وإن وجـود هذه الوسيلة أمر تعرفـونه جيد المعـرفة •• فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى إلى أناس سراع إلى التصـديق بأن الكائنات

البشرية ذات أدمغة ، وإن الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وإن الإنسان قادر على أن يؤثر فى الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وإن كثيرا مما قرأت فى أقوال البيولوجيين تلوح عليه أنه لا يفيدنا بشىء يزيد على ما ذكرت لكم . وإنى لأحس أن البيولوجى مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التى تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن .. ولا بد أن تأتى هذه المحاولة مستنده إلى التفكير « الصلب » لا إلى التفكير « الناعم » .. وأعنى بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بينة ، مقابلا للتفكير الذى يجد متنفسه فى الكلمات المونقة والعبارات المفخمة الشعرية .

« وأرانى أقارب الوضوح البين إذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا إلى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون » .

« فالصندوق العازف جهاز يحتوى قالبا أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك الزر بالباعث أو المحرض .. وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى إلى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأثر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . وإننى أبعث الصندوق بلمس الزر — أى زر — إلى إحداث نغمة موسيقية ، ولكننى إذا اخترت زرا معينا فالباعث هنا يدعوه إلى إحداث نغمة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به ، وكل ذلك راجع إلى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية .

« ... والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون أو أية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية :

« إن لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول إليه من البيئة المحيطة ... فذلك باعث كباعث

الصندوق العازف إلى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف إلى الباعث هنـــاك شيئا أكثر من ذلك •• وهــو الخطوط المرســومة التى تمر بهـا الإبرة فتبعث منها الأنغـام المؤداة ؛ وليس لدى الجرامفون مصــدر للتوجيهات الموسيقية وإنما هو القالب الذى جاء إلى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت قلاقتى به — إذن — علاقة تعليمية ؛ لأننى — بمعنى من المعــانى — قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع •

« ••• ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعددنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغــزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك •• فلنذكر هــذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات ••

« ••• منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون إلى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وإن كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس إلا •• أى إن تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس — كما كان مظنونا — نتيجة شىء من الخــارج •• فليست الآثار المستقرة فى الجهــاز الحى خطوطا مرســومة على قالب يديره ذلك الجهاز ؛ ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخــلايا •

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذى يعترى جمهورا من النــاس عرض له التطور ، فكيف نصنف البواعث التى تفعــل فعل التطور فى الأجهــزة الحيــة ؟ •• إن النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصــفات المكتسبة هى على أعمها تنظر إلى البواعث التعليمية ، تعنى أن البيئة على نحــو من الأنحاء قادرة على إعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحيــة ، وإن هذه التأثيرات إذا سرت فى البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة إلى أعقابها •• فالحداد الذى طالمــا ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قــوة فى ذراعيه من طرق

الحديد فتؤثر هـذه القـوة فى الخلايا التى تنشىء بذوره المنوية وتنتقل من ثم إلى أبنائه ؛ فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعدادا لتربيـة الأذرغة القوية •• ولست أفيض فى مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية •• وحسبى أن أجملها فأقول إنها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية . ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية •

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا إذا أعطيت طعاما غـير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فإنها فى هـذه الحالة قد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقـار وتلغى مفعوله . وقـد سميت هـذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبـار أنها عملية قادت البكتريا إلى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخمائر من طعامها . ولكنها تسـمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطؤها وتبين أن هـذه العملية وسـيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليميـة • فليس فى وسع البكتريا أن تنشىء خمـيرة غير التى هى مفطورة على إنشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام أنه نبه الاستعداد الذى لم يكن له منبـه قبل ذلك ، وهـو استعداد كامن فى التركيب وليس بالتعـليم المستفـاد من فعل الطعام أو العقـار ••

« ويصدق هـذا على تطور الحيوان •• فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصـار القول بالتعـليم ، إذ كان الأولون يرون أن كل تطور فإنما هـو نشر لمـا كان مطويا هنـاك ، وكان المتطرفـون منهم — وطالمـا تعرضـوا للسخرية — يرون أن بذرة النسـل إنمـا هى إنسان صـغير • أما الآخرون فعندهم أن العـوارض التى تعمل فى تكوين الجنين إنمـا هى بواعث تعرض له ممـا حوله • ولعـل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعـوامل الجينيـة تتم لأنهـا كامنة هنـاك ولكن استيفاءها رهين بالعـوامل الخارجية عنهـا ••

« وإلى نحو سنتين كنـا نشعر أن ضربا من النمو يتم فى أجهزة الحيوانات العليـا بفعل البيئة على اعتبـارها موجها أو معلما ، على النحو الذى نشاهده

عنـد تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، يؤدى إلى إنشـاء البنية لمـادة بروتينية خاصة •• أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المـادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره فى الوقاية من عدوى الأمراض ••

ومع البوادر التى توحى بأن هـذه العملية تعليميـة . أخـذ كثيرون من البيولوجيين يشكون فى ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية فى جوهرها ونعـود إلى الصندوق العازف مره أخرى ••

« وبعد •• فأى ظفر يتاح لنـا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هـذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصـارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟•• ربما قال لنـا زائر قدم إلى هـذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم •• إنه لظفـر عظيم ، وإننى لألمـح سره وأفهم أن هـذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقـة بين الحى والبيئـة ، ويجعـل الكائنات الحيـة مهيأة للنمو والتطور على صـورة أوفى وأسرع من صـورة التطور بفعـل الانتخاب الطبيعى ، لولا أنهـا صـعبة جدا ، وإنها ليست مما يستطاع ••

إلا أنكم تعلمون أنهـا استطيعت ، وأن هنالك جهـازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهـاز الدماغ •

« وإننا لنعلم القليل من أسرار هـذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقـدار تعقدها واشتباك وظائفهـا •• فإن تطور الدماغ قد كان آية رائعـة فى هـذا الوجود ، وهو ـــ ولا ريب ـــ أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ••

« على أننى أظن أن الدماغ إنما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وإن السلوك الغريزى إنما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فإذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هـذه لدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها •

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعـلم

« ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل إلى جيل كما تسرى الخطابات المتسلسلة التى تبدأ بكتابة خطاب إلى أحد النـاس ، وتسـأله أن يبعث به إلى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك إلى آخر وآخر إلى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن حفيده وهكذا ، على مدى الأجيـال ..

« ... ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار فى تطور الدماغ : أولهـا الجهاز العصبى وقد نشأ لتنبيه البنية .. ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطريق الجينية يأتى من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شىء أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه إلى آخرين . وإنه لعـامل خاص بالنوع الإنسانى لعله قام بعمله الهام منـذ خمسمائة ألف سنة .. أما الدور الرابع فهـو شـديد الشبه بالدور المتقـدم ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعنى به دور التطور الذى يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتى سنة ..

ونسـأل بعـد هذا ما الذى نستفيده مما تقـدم ؟ فنقـول إن الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات .. فالمشابهة بين تطور الفـرد وتطور الجماعة لا يجعلهما عملية واحدة فى مجرى الحوادث ولا فى عواقبها .. فصـناعة الحـداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتهـا من طـريق الناسـلات والصبغيات — أو ما نسميه بالطريق الجينية — غير مستطاعة .. وفائدة التمييز بين التطور الفردى وتطور الجمـاعة أن نبعـد عن أذهاننـا فكرة القـوانين الطبيعية التى تعمل فى الحالتين على سنة التغييرات الجينية ، أو الفـكرة التى تقول لنـا إن الجماعة لا بد أن تولد وأن تموت كمـا يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرة التى توحى إلينا ترك التجهد فى تحسين الجماعة اعتمادا على أن الطبيعة أخبر وأدرى .

* * *

« ونحن إذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هـذه مرهونة بمقـدار ما نملك من وسـائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومثـابرتنا على

زيادة محصولنا من العلم بمـا يجرى فيها .. ولست أقول إن الإنسان مدفوع بغريزة تحفزه إلى الكشف والاستطلاع وإنه مسخر أبدا فى طلب الحقيقة ، فإن الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبـا للتطلع أو التجسس ، ولكن هذه الغريزة وإن بلغت غايتها من الأحكام والقـوة لا تقيدنا ولا ينبغى أن نكون مدفوعين دفعا إلى الاستطلاع ، وإن أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصـد الطبيعة يقـاربون حدود الخطر والوبال .. وما علينـا إلا أن نذكر عاقبة الدعوى التى زعم أصـحابها أن الإنسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتـال .. ونحن نقـابل بيننا وبين أنواع الحيوان الأخـرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها فى هـذه الخصلة هـو أن الأجراس التى تدق لنـا دقات التنبيه إنما هى كأجراس المـاشية بجبال الألب معلقة بأعنـاقها فلا لوم على أحد سـوانا إذا لم نسمع منها ما يرضينا » .

* * *

هـذه خلاصة مقتبسة من كلام العـالم البيولوجى اقتباسا تحرينا فيـه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هـذا المعنى أن مسـتقبل الإنسـان الطبيعى مستكن فى كيانه وإنه يملك وسـائل التهـذيب الاجتماعى ولكنه لا يقـدر على إحداث أثر لم تكن مولداته مطـوية فى اسـتعداده ، وإن الأجراس التى تدق له دقات الخطر على حيـاته النوعية أو الفردية هى نفسها جزء من تلك الحيـاة ، وكذلك العلاج الذى يحتال به على الخطر بعد الانتباه إليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طبـه .

دواؤك منك وما تشـعر ودأؤك منـك وما تفـكر

* * *

وقبل الأستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عنـد نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السـؤال عن مستقبل الإنسـان عالم بيولوجى من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضـارع مداوار فى منزلته العلميـة وشهرته العالمية فكتب عن القـدر الإنسانى Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثـة على

منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغـاية المرسـومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا إلى عناية إلهيـة تتلخص حكمتها الهـادية فى أنهـا « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسـها وأن تترقى بالإرادة على حسب جهودها، مع الهداية التى تلهمها ولكنها لا تلهمها إلا لكى تعينهـا بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلهـا .

ومؤلف كتـاب القـدر الإنسـانى هو العالم البيولوجى الجليل ليكونت دى نوى De Nouy الذى يقول أن استمرار النشـوء والقول بالمصـادفة مفارقة لا تعقـل ، وهو يشـبه مجارى النشـوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصـب من فوق الجبـل إلى مسـتقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمـل معهـا ألوانا من الرواسـب والطوافى تخالف بينهـا آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصـدر من أصـل واحـد ولم تجر على سـنة واحـدة ، والواقع أنهـا ليسـت كذلك وأنهـا فى أصلها من بحيرة واحـدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية .

وعنـد « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئـة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين — دى فرى Nudin — De Vries — كلهـا صـالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور .

قال : « ونعيـد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما إلا إذا سـلمنا أنه خاضع لغاية ، وأنها غاية بعيدة مقدورة » .

ثم ختم بحوثه قائلا : « إن بعضهم قـد يرى أننا لا نزال على مسـافة بعيـدة من اليوم الذى يصبح فيـه الإنسـان وقـد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشـعر بضـميره ، وألا يكون كل حقـه فى المعـاملة أن يعامل كمـا يعامل الطفـل القـاصر ، وربما صـح هـذا ولكنـه — إذا صـح كان خليقا أن يصـبح سـببا للاتجاه بجوده إلى تلك الغـاية : « وأن الإنسـان المتطور

قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الإنسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يصل فى أعماق البحر ولا يدرى أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده .. وعلى كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى إلى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الإلهية كامنة فى تلك القرارة ، فى قرارته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل فى سبيل الله » .

ولقد آل تطور الإنسان عند غير البيولوجيين إلى تطور الإنسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التى بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الإنسان سيد الخليقة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدى المجاميع البشرية فعل الأداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الإنسان الأول ، إذ لم تكن له قدره على الحيوان الأعجم غير تلك الأداة .

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأى تعبيرا أدنى إلى الفهم من تعبير الأستاذ رسل هاريسون فى كتابه : « ماذا يكون الإنسان » .. فإنه ترك لغة « بابل » الحديثة : لغة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغى أن يوضع إن كان له موضع على الإطلاق ، وذلك هو موضعه من « الشخصية الإنسانية » ...

فلا مستقبل للإنسان إن لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور

لهـذه الشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل •

إن الشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب • ومعنى تطور الإنسان فى الذهن أن تتم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس فى الواقع ما يمنع « الشخصية الإنسانية » أن تتحقق كما تحققت فى الذهن : فكرة قابلة للتمام ••

عَودٌ على بَدْءٍ

بعـد هـذا الشوط فى عرض المذاهب والآراء عن الإنسـان نسأل على ثقة من الجوانب :

ــ هل صـحيح أن القـرآن يلقى بالإنسـان غريبـا منقطعا فى القـرن العشرين ؟ ..

والجواب الذى لا تردد فيـه ، أن القـرآن ــ على النقيض من ذلك ــ يضـع الإنسـان فى موضـعه الذى يتطلبه ، فلا تسعده عقيـدة أخرى أصح له وأصـلح من عقيدة القـرآن ، لأن عصر العـلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنا » أصـح وأصـلح من الإنسـان الذى يؤمن بالأسرة الإنسـانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضـل واحـد متفق عليـه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية .. وهو فضـل الإحسـان فى العمـل واجتناب الإساءة ، وليس لهـذا العصر حق على بنيه أصـح وأصـلح من حق الشعور « بالمسـئولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام إلى العقـل فى كل ما يسعه العقـل ، ثم اطمئنان الضـمير إلى الخير فيما خفى عليـه من شـئون الغيب المجهول ، ولابد فى كل عصر حديث أو قـديم من غيب مجهول ..

إن القـرآن يعطى القـرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصـح منـه وأصـلح لزمانه ، فإذا آمن هـذا انسـان بالله وبالنبوة فليس أصـح ولا أصـلح لعصر الوحدة الإنسـانية من الإيمان بهـذا الإله الواحد ــ لتسلمه إلى عقله وضميره ، وتسأله عن إصـلاح نفسـه وإصـلاح دنياه بما يدعوه إليه قوام الروح والجسـد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان هـذا هو إنسـان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالنـاقد المنصـف إلى حظ كبير من الترفع لينظر من عل إلى أولئـك المتعالين المتوقرين

أولئــك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منهــا بمقطع الرأى وقال لهم مقطع الرأى هــذا أن القــرآن نســخة مكررة ــ بل مشوهة ــ من هــذه الديانة أو تلك الديانة ، وأنه لم يحدث بعــدها جــديدا فى عالم الروح وعالم العقيــدة ، وهو الذى هــدى العــالم فى أمر الإله وفى أمر النبوة وفى أمر الإنســان إلى هــذا الفتح المبين .. وما من بقيــة فى لباب العقيدة بعــد هــذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الإلهية وأمر الرســالة والهــداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات اللــه أجمعين : وهو هــذا الإنســان الذى تخاطبه الأديان ..

* * *

وقــد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القــرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا إليــه فيما تقــدم . وقــد نرى ــ أهم من ذلك ــ أن آيات القــرآن تفســح للعقل الإنســانى كل طــريق من طــرق البحث والتــأمل ، فلا تصــده عن طريق قط يترقب منــه معرفة نافعــة توافق المعارف الشــائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه البــاحث الصــادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القــرآن ، إلا أن يكون الطــريق الذى لا يفتحــه يوما دين يدعو إلى الله : وهو طريق الإلحاد .

ففيما تقــدم من شروح حكماء الإسلام ما هو أعجب من فروض النشوئيين بعــد القــرن التاســع عشر عن الأحيــاء ودرجاتها من البهيمية إلى القرد إلى الإنســان ، وللنشوئيين المحدثين آراء قــد يستمدون تأييدها ــ لو شــاءوا ــ من آيات قرآنية فسرها بعضنا تفسيرا يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ » .

« سورة البقرة »

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ » « سورة الرعد »

«وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا» « سورة نوح »

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب « النظريات » والفروض في كل عصر يظهرون فيه ؟ .. نقول « كلا ولا ريب » لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح إذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها إلى نهاية شوطه مسئولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملى للعقل فى عمله ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير ..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ..

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى — فيما تبين بعد ذلك — إحدى حقائق العيان .

ومذهب التطور — خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع — لم يثبت — بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى ، لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفى التحول إلى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة

من صور التركيب ، وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين ..

« ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » « سورة السجدة »

وفى آية أخرى : « مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذى يثبت — إذا ثبت — على وجه من الوجوه .

ومذهب النشوء — مع سائر العلوم الحديثة — يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد : هل يتطور الإنسان فى المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع إلى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به يملى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ إلى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلتفت إليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدى إلى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ أن الغد كله مرهون بميراث العقل والمشيئة والإيمان ...

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم — كثر أو قل — لا ينفعهم فى تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وإنما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الإنسانية » إلى خير ما تستطيعه العقول المميزة إذا صدقت النية على حسب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم و « بقاء الأصلح » مسألة فهم واعتقاد أدنى إلى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام .

ونخال أن القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء ، ولكنها الهداية التى تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان) و (أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)

ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هـذه الصفحات عن الإنسـان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم اخوة من عشيرة واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن وتجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما أتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٦٨

مطبعــة نهضة مصر

الفجالة ــ القاهرة

مطبعــة نهضة مصر
الفجــالة ـــ القاهرة



الثمن ٤٠ ص